إدراك الحياة

رابندراناث طاغور

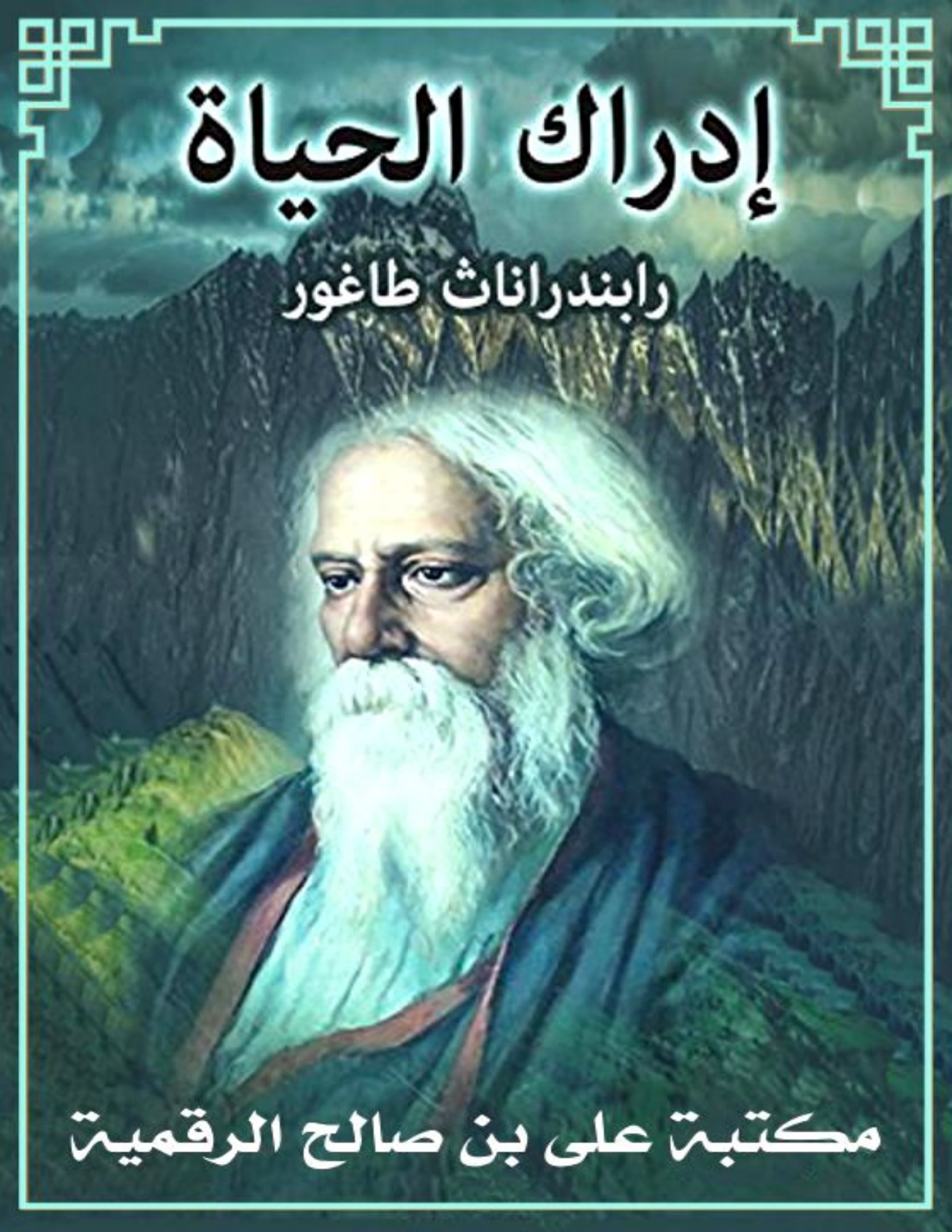

مكتبة على بن صالح الرقمية

رابندراناث طاغور

إِدْرَاك الحَيَاة

دراسات فلسفية

ترجمة : مترجم غير معروف

1910

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

1- إدراك الحياة

أود أن أذكر لكم هنا أن موضوع هذا الكتاب ليس لمعالجته فلسفياً، ولا بحثه من وجهة نظر أحد العلماء. فكاتب هذا الكتاب نشأ في أسرة كانت نصوص الأوبانيشاد (التعاليم السرية / كتاب مقدس في الديانة الهندوسية) جانب جوهري في حياتها اليومية، و أيضاً والدة الذي – عاش لفترة طويلة- كان علي علاقة قوية مع الله في حين أنه لم يغفل أبداً عن أي جانب من جوانب الحياة. و لذلك فمن خلال هذا الكتاب، يتثني للغرب أن يقتربوا أكثر من الروح التي كانت تتسم بها بلاد الهند قديماً ، تلك الروح المنبعثة من النصوص المقدسة والتي تُميز الآن بلاد الهند و تنعكس في أسلوب الحياة بها.

فلا يقاس أبداً كلام الإنسان بمقدار ما لديه من ثقافة و لكن بما لدية من روح- تلك الروح التي تظهر و تتكشف مع تطور الحياة. ويمكننا أن نري المضمون الحقيقي للديانة المسيحية من خلال الانتباه إلي أسلوب الحياة في تلك اللحظة الراهنة – و لكن قد يختلف ذلك المضمون ، حتي في الجوانب الأساسية للحياة ، عما كان علية في العصور السابقة.

يظن طلاب العلم و الباحثين في الغرب أن الكتب المقدسة العظيمة لدي الهند ما هي إلا اهتمام بالماضي و أثرياته، و لكنها بالنسبة لنا فهي ضرورة حياتية،و لذلك لا يمكن أن نري هذه الكتب المقدسة قد فقدت مغزاها عندما أصبحت معنونة- علي هيئة نماذج من الفكر و من الروح البشرية- و مغلفة في كتب العلم للاحتفاظ بها دائماً.

لا يمكن أبداً أن تتلاشي معاني الكلمات – التي نتفوه بها يومياً و النابعة من خبرات أنُاس لها وجدان رائعة – بسبب أي منهج من مناهج التفسير المنطقي. و تتجلي تلك المعاني دائماً من خلال تحليل و تفسير حياة الأفراد ، عندئذ تُصبغ هذه المعاني بصبغة من الغموض في كل كشف و تفسير جديد لها.

فنصوص الأوبانيشاد (التعاليم السرية) و تعاليم البوذا هي نتاج الروح، ونتيجة لذلك نحصل منها علي النمو و الإدراك الأساسي الغير محدود. و بالنسبة لي ، فأني أسير علي درب تلك التعاليم ،سواء في حياتي الخاصة أو في محاضراتي و جاء ذلك بسبب الميل الفطري عندي و اهتمامي بالمعني الفردي ، ذلك الميل هو أيضاً لدي الآخرين ، ممن انتظر تصديقهم للبرهان الخاص بي الذي له قيمته بسبب فرديته و تميزه.

و لي أن أضيف أن ما في ثنايا هذا الكتاب – الظاهر علي هيئة عمل متصل مترابط ، و يتناسب مع هذا النشر- هو عبارة عن أفكار منتقاة من بين العديد من محاضرات بنغلاديش التي اعتدت أن القيها

علي طلابي في مدرستي في بولبور في بنغلاديش. هذا وبالإضافة إلي إنني قمت بتجميع تراجم هذه النصوص التي ترجمها بعض الأصدقاء، بابو ساتيش شاندرا روي و بابو أجيت كومار شكرافارتي. و الجزء الأخير من هذه السلسلة، « إدراك في الواقع»، الذي ترجمه ابن أخي، بابو سورندارا ناث طاغور ، الوارد بأحدي الخطب البغلاديشيه الخاصة بـــــ « كرما- يوغا».

و أود اغتنام هذه الفرصة للتعبير عن امتناني للأستاذ الدكتور جيمس أتش. وودز، بجامعة هارفرد، لتقديره و تشجيعه لي في استكمال هذه السلسلة و إلقاء العديد منها في جامعة هارفارد. و أود أيضاً شكر السيد/ إرنست رياس في مساعدته لي بالاقتراحات و المراجعات و البراهين.

وبالنسبة لنطق سادانا Sadhana : فيكون بالتشديد نطقاً علي حرف ((A / (أ)، هذا الحرف الواضح نطقاً.

علاقة الفرد بالعالم حوله

بدأت الحضارة اليونانية القديمة داخل أسوار و حدود المدينة.وفي الواقع، إن كل الحضارات الحديثة بدأت مع وجود مواد البناء و إقامة الأسوار.

وتترك هذه الأسوار أثارها بكل عمق في عقول الناس. فترسخ في صورتنا الذهنية مبدأ « وضع الحدود و إرساء القواعد»، و من هنا نشأت و تكونت عاده تأمين الغزوات بتحصينها و الفصل فيما بينهم .فنقوم نحن بالتقسيم بين الأمم و بين المعارف والعلوم و أيضاً نفصل بين الإنسان والطبيعة. فيتوالد بداخلنا الشك و الريب فيما ما تخفيه هذه الأسوار التي قمنا ببنائها، وعلية يصل أي شيء إلي حيز إدراكنا بصعوبة.

و مع بدء مجيء الغزاة الأوروبيين (الهنود الأوروبيين)إلي الهند، كانت الهند آنذاك عبارة عن أرض شاسعة من الغابات، و سرعان ما قام هؤلاء باستغلال هذه الغابات و الاستفادة منها. فكانت تمنحهم الحماية من حرارة الشمس الشديدة، ومن الدمار الناتج عن العواصف الاستوائية، مع رعي الماشية، و حصولهم علي الوقود اللازم لإشعال النار مع أجل طهي الذبائح ، ومواد البناء اللازمة لبناء الكهوف. وكان بهذه الغابات جماعات وعشائر أخري لها شيوخ ممن كانت لهم إقامة في أماكن أخري داخل هذه الغابات ، و تلك الأماكن كانت تتميز بحماية طبيعية خاصة بهم، مع وفرة من الطعام والشراب.

و هكذا كانت بالهند تلك الغابات التي نشأت فيها حضارتنا، وتشكلت لها شخصية استثنائية بارزة من هذا المصدر و هذه البيئة. كان بها حياة الطبيعة التي أثرت بعمق في تلك الشخصية، و امتزجت بها من خلال التأثر الشديد بكافة النواحي المختلفة لتلك الحياة و العلاقة الوطيدة معها.

هذه الحياة، كما يظن البعض، أن نتيجة هذا النوع من الحياة هو الوصول بالعقل البشري إلي الفتور و التبلد مع تثبيط أي حافز للتقدم من خلال خفض معايير الحياة والوجود. ولكننا نجد في الهند القديمة، أن ظروف الحياة في الغابات لم تقهر عقل الإنسان و لا تحجم أو تُضعف تدفق الطاقات لدية , ولكن فقط قدمت له اتجاه معين يسير من خلاله. ومع حالة الاتصال الدائم بتطور الحياة في الطبيعة، تحرر عقل الإنسان من أي رغبة في الوصول إلي السيطرة و إقامة أسوار حول ممتلكاته. ولذا كان هدفه ليس أن ينال ولكن أن يعي ويزداد إدراكه مع البيئة المحيطة به.وبدأ يشعر الإنسان بأن الحقيقة شاملة– حقيقة أنه لا يوجد شيء في انعزال مطلق تام عن الوجود، و السبيل الوحيد في بلوغ تلك الحقيقة يكون من خلال الوعي بوجود نفسه في ضوء علاقته بما حوله من أشياء. و أيضا إدراك أن هذا الانسجام العظيم مع بين روح الإنسان و روح العَالمَ حوله كان هو دأب الحكماء الهنود في تلك الغابات.

فيما بعد جاءت وسائل ومجالات العناية و الاهتمام بهذه الغابات البدائية و تهذيب أشجارها. ومن ثم انتشرت المدن الثرية في جميع الأنحاء. و علية أنشئت الكثير من الممالك العظيمة التي لها اتصال مع كل القوي في العالم. ولكن في أوج هذا الازدهار و الرخاء الاقتصادي، فكانت الهند تتطوق إلي تلك الحياة القديمة في الغابات ، حيث أن هذه الحياة كانت تعني إدراك الذات و إجلال و عظمة الحياة البسيطة في صومعة هذه الغابات، حيث هناك يتوالد أفضل إلهام الذي منه تتبلور الحكمة التي تكمن في هذه الغابات.

لدي الغرب شعور بالفخر فيما يتصورنه تجاه أسلوب حياتهم الذي يقهر تلك الطبيعة، وكأننا نعيش في عالم عدواني فيه ننتزع كل شيء بالقوة من خلال نظام مخالف ومعاكس للأشياء. جاء هذا الفكر و تبلور نتيجة لبناء المدن وما حولها من أسوار، وبذلك اعتاد العقل علي هذا الأسلوب من التفكير و التصور. ففي حياة المدينة ينصب تركيز الإنسان حول حياته و عالمة الخاص، وبالتالي يحدث للإنسان انفصال زائف بين نفسه وبين الطبيعة حوله التي يعيش و يمكث في قلبها.

بينما للهند وجهة نظر أخري مختلفة، من خلالها تري أن الإنسان والعالم حوله معاً يشكلان حقيقة عظمي واحدة. وذلك لأن الهند لديها إيمان راسخ بالانسجام بين الفرد و العالم الذي حوله. وأيضاً إيمانها بعدم وجود أي نوع من العلاقات مع الطبيعة حولنا إذا كنا في انفصال عن أنفسنا وإذ لدينا شعور واضح بالغربة تجاه أنفسنا. و يشكو الإنسان من الطبيعة في أنه يحصل علي احتياجاته من خلال الكّد و الجهد. هذا صحيح، لكن هذه الجهود لا تضيع هباءً، فكل يوم يحقق الإنسان النجاح من خلال مجهداته و هذا يعكس العلاقة المنطقية السليمة بيننا و بين الطبيعة. لأننا في الواقع لا نستطيع القيام إلا بما هو له علاقة بنا.

ولنا أن نري طريق الإنسان من خلال وجهتي نظر مختلفتين. الأولي هي تصنيف الإنسان وفقاً لدافع الرغبة داخلنا، عندئذ تكون القوة هي سبيلنا في الحصول علي الأشياء و انتزاعها عنوه. أما الثانية

هي رؤية طريق الإنسان في الحياة علي أنه هو الطريق الذي يسير من خلاله للوصول إلي غايته، وبذلك يعتبر هذا الطريق هو جزء من غايته و هدفه .فمن خلال وجهة النظر الثانية فيعتبر ذلك فعلاً بمثابة الخطوة الأولي لإنجازنا،و من خلال المضي في هذا الطريق عندئذ نغنم بما فية.و تبقي لنا الحقيقة العظمي هي أننا في انسجام مع الطبيعة، فالإنسان يتمكن من التفكير لأن أفكاره في حالة من التناغم مع الطبيعة، و يستطيع أن يُسخر قوي الطبيعة لصالحة و لتحقيق هدفه فقط لأن قواه في توافق و انسجام مع تلك القوي الكونية، و لا تدخل أبداً مصالحة وأهدافه، علي المدى البعيد، في صراع مع الهدف الذي تنشده الطبيعة.

والشعور الغالب علي الغرب في هذا الصدد، هو أن الطبيعة تعني بشكل خاص الجماد و الحيوانات المتوحشة، فهناك هجوم جاء بغتة يتعذر تفسيره بخصوص المكان الذي بدأت فيه الطبيعة البشرية. وعلية، فإن كل ما هو متدني في عالم الكائنات ينتمي للطبيعة، و أي سمة من الكمال في تلك الطبيعة، سواء المعنوي أو الفكري، تنتمي للطبيعة البشرية.

وذلك كأننا تماماً نقوم بفصل البرعم عن الزهرة نفسها و تقسيمهم إلي شيئين منفصلين وإقحام جمالهم في مبدأين مختلفين ومتناقضين.و لكن ليس لدي العقل الهندي أي تردد أو شك في إدراكه لمدي الصلة و العلاقة الوطيدة التي تربط بينة وبين الطبيعة.

لا ينظر الهنود للانسجام و لتلك الوحدة الأساسية التي تربط بين الخلق من خلال منظور تأملي فلسفي فحسب، فتلك العلاقة بالنسبة لهم هي الغاية لأجل إدراك هذا الانسجام و الترابط العظيم سواء كان ذلك بشكل معنوي أو بشكل مادي. فمع الوسطية و توافر الخدمات و تعديل أسلوب الحياة، أصبح إدراك و وعي الهنود ذو ثقل بالشكل الذي به يصبح لكل شيء لديهم دلالة و مغزى روحاني. فلا تقتصر الأرض و الماء و الضوء و الفواكه و الورود علي مجرد أنهم ظواهر مادية تُستخدم عند الحاجة ثم بعد ذلك ندعها جانباً. فتلك الظواهر ضرورية من أجل تحقيق الكمال المنشود لديهم، مثلها مثل أهمية كل علامة موسيقية في تشكيل السيمفونية. فلدي الهنود شعور فطري بأن جوهر هذا العالم و حقيقته لهم مغزى و معني حيوي لنا نحن البشر.لذا فيجب علينا أن نحيا مع الطبيعة ونقيم معها جسر من التواصل الواعي، ليس فقط في سبيل تحقيق الفضول العلمي أو النهم للمنافع المادية، ولكن أيضاً من أجل الوصول للإدراك و الوعي ،عن طريق التناغم والانسجام، حينها نشعر بالغبطة والسلام.

يدرك العَالِم، من ناحية، أن العَالمَ ليس فقط ما ندركه من خلال الحواس ، فهو يعلم تماماً أن الأرض و الماء هما نتاج حركه القوي التي تتجسد لنا علي شكل أرض و ماء — كيف نستطيع بشكل جزئي أن ندرك ذلك. هذا وبالإضافة إلي أن من لدية حس روحي يدرك بأن الحقيقة المطلقة للأرض و الماء تكمن في فهمنا للمشيئة الداخلية التي تظل تعمل و تتشكل لنا من خلال القوي التي ندركها في الأرض و الماء. هذا ليس فقط معرفة ، وعلم، ولكن هو الإحساس و الإدراك للروح من خلال الروح

نفسها. و هذا الإدراك لا يمدنا بالقوة مثل المعرفة و لكن يجلب لنا الشعور بالمتعة و السرور، الذي هو نتاج الوحدانية بين الأشياء التي لها أصل واحد يجمعها.

فالإنسان الذي لا يقوده إدراكه للعَالمَ حوله إلي مرحلة أكثر عمقاً مما يقوده العلم، فلا يمكنه أبداً أن يدرك ما يجده الإنسان ذو البصيرة و الحس الروحي في تلك الظواهر الطبيعية. فالماء لا تنظف فقط أطرافة ولكنها تطهر قلبه، و تلامس روحة. و كذلك الأرض ليست فقط تحمل الإنسان فوقها و لكنها تسبب لعقلة البهجة، والاتصال معها ليس فقط اتصال مادي – ولكنه وجود حي يعيش به. و إذا لم يدرك الإنسان العلاقة التي بينة وبين العالم من حوله فإنه يعيش في منزل أشبة بالسجن جدرانه غريبة علية. و لكن عندما يري الروح الداخلية لكل الأشياء حوله، عندئذ يتحرر و يكتشف المغزى بالكامل للكون الذي نشأ فيه، و يجد نفسه وصل للحقيقة الكاملة، فينشأ الانسجام و التناغم بينة و بين كل ما حوله.

يستمتع الهنود بإدراكهم حقيقة العلاقة الوطيدة التي بينهم وبين الأشياء من حولهم، علي مستوي الجسد و الروح معاً، فيرحبوا بشمس الصباح و المياه المتدفقة و الأرض المثمرة، فتتجلي حقيقة الوجود التي يغوص كل منهم فيها. و نص تأملاتنا اليومية ، جياثري، هو الأيه التي تعتبر بمثابة الصورة المصغرة لكل الفيداين(معتنقي الفيدا).

فتكشف هذه الايه الانسجام الحيوي بين العَالمَ و الوعي لدي الإنسان، فنتعلم كيف نستوعب و نفهم هذا الانسجام الذي يجمعنا كلنا من خلال روح داخلية واحدة، فقوة هذه الروح هي التي تخلق الأرض و السماء و النجوم، و في نفس الوقت تضيء عقولنا بنور الوعي الذي يتحرك ويوجد من خلال ترابط متواصل مع العَالمَ الخارجي حولنا.

ولا يوجد أي أساس من الصحة في الاعتقاد بأن الهند تتجاهل الاختلافات حول قيمة الأشياء المتباينة، يعلم الهنود أن حياه الإنسان بهذا الشكل غير ممكنة. و لا يغيب عن عقل هؤلاء الهنود شعور الإنسان بالتميز. و لكن ما لديهم من اعتقاد يعكس فعلاً هذا التميز للإنسان عن سائر المخلوقات. حيث لا يكمن ذلك في قوة الامتلاك ولكن في قوة الانسجام و الترابط. و في سبيل ذلك، تختار الهند أماكن الحج التي في الطبيعة و تتميز بالفخامة أو بالجمال، حتى يخرج العقل من العالم المحدود للاحتياجات و يكتشف مكانة في العالم اللا محدود. و هذا هو السبب وراء ترك هؤلاء الناس– أكلي اللحوم في الماضي– تناول اللحوم من أجل تهذيب و تنمية الشعور بالانسجام الكوني في الحياة. أليس ذلك حدث فريد مميز في تاريخ البشرية!.

تدرك الهند كيف أثرت علينا الحواجز المادية و العقلية بشكل قاسي ففصلتنا عن الطبيعة التي لا تنضب عندما أصبح الإنسان فقط إنسان وليس إنسان في منظومة الكون والعالم من حوله، و من هنا خلقنا لأنفسنا المشاكل المُربكة و فصلنا أنفسنا عن مصدر الحل، في حين أننا نجرب كل الطرق الزائفة المصطنعة، وتأتي كل طريقة بما لا تشتهي الأنفس فتجلب معها وفرة من العراقيل المضجرة. فعندما

يتخلي الإنسان عن مستقرة ومكانة الأمن في الكون ، وكأنه يسير علي حبل واحد ، من حبال الطبيعة البشرية ، فإن ذلك يعني بالنسبة له إما الرقص أو السقوط لأنه يحاول بدون توقف أن يجهد كل عصب و كل عضلة له من أجل الحفاظ علي توازنه في كل خطوة، ومن ثم، أثناء فترات الاستراحة التي تتخلل هذا الجهد يضجر ويسخط علي الإرادة الإلهية ويشعر بنوع من الزهو و الاقتناع الدفين تجاه تفكيره في شعوره بالظلم من النظام الكلي لسير الأشياء حوله.

ولكن لا يستمر ذلك أبد الدهر. فيجب علي الإنسان إدراك اكتمال وجودة و مكانة في العالم الغير منتهي، ويجب أن يدرك انه من الصعب أن يصل لهدفه الذي يناضل للوصول إليه من داخل قفير النحل الخاص به، و لكن مصدر الطعام الدائم لحياته يكون خارج الأسوار. ويجب علي الإنسان أن يعلم أنه عندما يبعد نفسه عن هذا الاتصال الحيوي مع العالم اللا محدود ، ويتقهقر بنفسه للوراء من أجل القوت و البحث عن وسائل بديلة للعلاج ، فهو بذلك يقود نفسه إلي الجنون و يقطع نفسه إرباً وبعد ذلك يأتي ليتناول طعامه. و عندما ينتزع الإنسان نفسه من الكون الذي فيه، فإن احتياجه يفقد واحدة من أعظم الخصائص، يفقد البساطة بالإضافة أنه يصبح مُهمل و منطوي علي نفسه. و لم تعد ثروته كامنة في النبل و الكرم ، بل يزداد أكثر في التطرف و التهور. و لم تعد رغباته تخدم حياته، و لكنها تظل رغبات من أجل الرغبات، و بلا أي هدف و تتحول حياته إلي جحيم . و علي الضوء الشاحب لنيران هذا الجحيم يظل يلعب الناي بلا معني. فهذا هو التعبير عن الذات الذي يحيرنا و يفزعنا و لكن لا ننتبه له ، ففي الفن إننا نسعي إلي التميز والحداثة و لا ننظر إلي الحقيقة التي منذ القدم و لكنها مستمرة فلذاك هي دائماً جديدة. و كذلك في الأدب لا نري الصورة الكلية للإنسان التي قد تكون بسيطة و لكنها عظيمة. و بذلك لا يكون هناك سبيل للتعبير عن الذات فينقاد الإنسان إلي المعاناة النفسية أو إلي مشكله بسبب شحنه زائدة من العواطف التي تظهر بسبب شيء غريب أو شيء ظاهر من خلال وهج ضوئي قوي و شديد و لكنة سطحي.

ومع تقوقع الإنسان داخل عالمة الخاص، فإن الجذور طبيعته العميقة لا تجد تربة دائمة لها، وبالتالي تصبح روحة علي حافة الانهيار، ويستبدل القوة التي في صالحه بأسوار من الإثارة الداخلية. و بذلك يفقد الإنسان صورته الداخلية و يقيس عظمته و كيانه من خلال حجمه و ليس من خلال الصله القوية التي تربطه بالعالم اللا محدود من حوله، و يكون تقييم نشاطه من خلال حركته و ليس من خلال استجابته للكمال و التوحد مع العَالم—تلك الاستجابة التي لها صداها في السماء المرصعة بالنجوم ، و في الانسجام الإيقاعي الدائم لرقصة الكون.

لم أتمني و لو لبرهة واحدة من الزمن أن أطرح تلك الأشياء التي يجب أن تكون عكس ذلك. و يعتبر إهدار كبير للفرص إذا لم يعيد التاريخ نفسه تماماً من خلال إتباع هذا الأسلوب الحياتي في كل مكان.

و تزامن أول غزو للهند ، من قبل المحتلين الأوروبيين، مع غزو أمريكا. فكانوا في تحدي مع الغابات البدائية و صراع شديد مع الأجناس البدائية. و لكن يظل هذا الصراع بين الإنسان و الإنسان و بين الإنسان و الطبيعة أبد الدهر، فليس له مده محدودة. و أصبحت الغابات بالهند التي كانت مستوطن للبربر هي المكان المقدس للحكماء و العقلاء، ولكن في أمريكا، فإن تلك الكاتدرائيات للطبيعة ليس لها أي دلاله أعمق بالنسبة للإنسان.

فالثروة و القوة المتوفرة لدية، في بعض الأحيان تجعله يستمتع بالجمال، و تكون مصدر إلهام للشاعر المنفرد بنفسه. لم يكن هناك أي صلة ذات قدسية بين قلوب هؤلاء الناس ،الذي هو مكان التصالح الروحاني العظيم الذي فيه روح الإنسان تتلاقي مع روح العالم حوله و تنسجم معها.

ومع تقوقع الإنسان داخل عالمة الخاص، فإن الجذور العميقة لطبيعته لا تجد تربة دائمة لها، وبالتالي تصبح روحة علي حافة الانهيار، ويستبدل القوة التي في صالحه بأسوار من الإثارة الداخلية. و بذلك يفقد الإنسان صورته الداخلية و يقيس عظمته و كيانه من خلال حجمه و ليس من خلال الصله القوية التي تربطه بالعالم الغير محدود من حوله، و تقييم نشاطه من خلال حركته و ليس من خلال استجابته للكامل بينة و بين العالم—تلك الاستجابة التي لها صداها في السماء بنجومها، و في الانسجام الموسيقي الإيقاعي الدائم للخلق و التكوين.

ويحاكي أول غزو للهند غزو أمريكا من قبل المحتلين الأوروبيين. فهؤلاء المحتلين كانوا أيضاً في مواجهة مع الغابات البدائية و صراع شديد مع الأجناس الأصلية. و لكن ظل هذا الصراع بين الإنسان و الإنسان و بين الإنسان و الطبيعة و لم تكن له نهاية معينة . لكن في الهند أصبحت الغابات التي كانت مستوطن للبربر هي المكان المقدس للحكماء و العقلاء، ولكن في أمريكا، فإن الكاتدرائيات ليس لها أي دلاله أعمق عند الإنسان. فالثروة و القوة المتوفرة لدية، في بعض الأحيان تجعله يستمتع بالجمال، أو تكون مصدر إلهام للشاعر المنفرد بنفسه. إلا إن الإنسان لا يستطيع أبداً من خلال ذلك أن يستمتع بتلك العلاقة المقدسة التي بين قلوب البشر،الذي هو مكان التصالح الروحاني العظيم الذي به تتلاقي روح الإنسان و تنسجم مع روح العَالمَ الذي حوله.

لم أتمني و لو لبرهة واحدة من الزمن أن أطرح كيف كان يجب أن تكون تلك الأشياء عكس ذلك. و يعتبر إهدار كبير للفرص إذا أعاد التاريخ نفسه تماماً بإتباع نفس الطريق و الأسلوب في كل مكان. وبالنسبة لتجارة النفس التي يتعامل معها الناس بشكل غريب، فمن الأفضل جلب منتجاتهم المختلفة إلي متجر الانسانيه، فيكون كل ما به مكمل وضروري للأخر. كل ما أود ذكره هنا هو أن بلاد الهند قد واجهت في بداية عهدها العديد من الظروف المجمعة التي لم تكن ناتجة عنها. فكانت بلاد الهند ، من خلال ما لديها من فرص، بالتفكر والتأمل و الكفاح والاجتهاد و دخولها في أغوار النفس البشرية، وأيضاً مع سعيها إلي تحقيق شيء الذي لم يكن ليتحقق بدون وجود قيمة له لدي من كان لهم تقدير

مختلف تماماً علي مر العصور. و الإنسان في حاجة إلي كل عوامل الحياة التي تشكل حياته المعقدة من أجل الوصول إلي النمو الكامل الذي يصبو إليه. فمثلا ذلك هو سبب زراعة الطعام في مكان و الحصول علية من مصادر و أماكن أخري.

الحضارة هي ذلك القالب الذي من خلاله تسعي كل أمه إلي تحقيق نفسها من أجل تشكيل شخصيه شعبها وفقاً لأفضل المعايير. و لذلك تجد كل المؤسسات و التشريعات و معايير الاستحسان و الاستنكار و الخطب الهادفة و أيضا الغير هادفة تسعي نحو هذا الهدف. و تحاول الحضارة الحديثة لدي الغرب، من خلال كل مجهوداتها المنظمة، أن تنهي مثالية الإنسان في الجوانب المادية و الفكرية و الأخلاقية. فما لدي هذه الأمم من طاقات تم استغلالها من أجل فرض الإنسان سيطرته علي البيئة حوله، و علي هذا النحو تجمع الناس كل القدرات و تستغلها في سبيل تلك السيطرة و للتغلب علي كل عقبة تواجههم أثناء الغزو. فهم يقمعوا أنفسهم من أجل محاربة الطبيعة و باقي الأجناس، و يوم بعد يوم تزداد أسلحتهم ضراوة و شراسة، و تتضاعف المعدات و التنظيمات بمعدل رهيب. و هذا، بلا شك، تبلور رهيب لسيطرته التي لا تعترف بأي عقبه و في سبيل تحقيق ذلك تسود نفسه علي أي شيء أخر.

كانت لدي الحضارة الهندية القديمة هدفها الاسمي في الكمال المنشود الذي اليه كانت كل الجهود مكرسة له. فلم يكن أبداً الهدف هو الحصول علي القوة، و لم يكن الاهتمام هو التطور للوصول إلي أقصي القدرات، و لا توظيف الإنسان من أجل أغراض الدفاع و الهجوم أو من أجل التعاون للحصول علي الثروة و السطوة العسكرية و السياسية. و الهدف الأسمى لدي الهند هو الوصول بشعبها الأفضل إلي التميز و التفرد في الحياة ذات النزعة التأملية، و الحصول علي الكنوز من وراء هذا الهدف من خلال الغوص في خبايا الحقيقة التي تكلف الكثير في عالم النجاح الدنيوي. و لكن، هذا أيضاً أفضل انجاز—إنه الانعكاس و التبلور الاسمي للطموح الإنساني الذي لا يعرف الحدود، و التي في سبيل ذلك الهدف لا تقبل ،هذه الحضارة، ما هو أقل من إدراك العالم الغير محدود.

ففي الهند يوجد المتواضع و الحكيم و الشجاع، و كان هناك رجال السياسة و الملوك و ألأباطرة، و لكن كانت الهند تختار من بين كل هذه الفئات من يمثل شعبها.

هؤلاء هم الأريشين. من هم الأريشين؟- هم من يصلوا إلي الروح الاسمي في المعرفة التي تملؤها الحكمة و عندما يجد نفسه في صلة مع الروح ، الانسجام مع الروح الداخلية، حينما تخلو نفسه من أي أنانية ، و يشعر بالهدوء والسكينة عند المشاركة في مختلف نشاطات الحياة. فهولاء الأريشين من هم يصلوا لإدراك روح الله المقدسة في كل الجوانب ، حينما يتغلغل السلام الدائم و المشترك في كل شيء،و في الحياة و الكون.

و هكذا فإن حالة إدراكنا للعلاقة بيننا وبين كل ما حولنا- أي بالدخول في أي شيء من خلال العلاقة الوحدانية مع الرب – هي ما كانت تطمح إلية الهند و به تتحقق الإنسانية.

قد يدمر الإنسان أو يسرق أو يكسب أو يكدس أو يتحايل و يكشف ما لدية للغير، و لكنه في النهاية هو كائن عظيم لأن روحة تدرك كل شيء. إنه لدمار رهيب للإنسان حينما يتقوقع داخل قوقعة هامدة من العادات القاسية ، و من ثم تحوطه الأعمال الهائجة كأنها دوامة لعاصفة رملية تفصله عن الأفق. و هذا فعلاً كفيل بأن يدمر كيانه الذي هو روح الإدراك لدية. و الإنسان الحقيقي لا يكون أبداً عبد لنفسه أو للعالم من حوله ، و لكنه إنسان يشع منه الحب. بمعني أن حريته و انجازاته تنبع من عاطفة الحب به ، التي هي اسم مرادف لمعني الإدراك الكامل داخلة.

ومن خلال قوة إدراك نفسه و الدخول في أعماقها ، فإنه يتوحد وينسجم تماماً مع الروح المنتشرة في الكون و أيضاً داخل النفس. و لكن حينما يحاول الإنسان أن يعلو بنفسه من خلال سيطرته و اصطدامه مع الآخرين، من أجل تحقيق مكانة يفتخر بها أنه أفضل من أي شخص أخر، عندئذ فهو في عزله و انفصال تام عن هذه الروح. و هذا هو السبب حينما يصف الاوبانشادين البشر الذين حققوا هدف الحياة الانسانيه بـــأنهم « السِلميين» و أنهم في وحدة مع الله» ، انسجامهم الكامل مع البشر و الطبيعة، و في الوصول لعلاقة هادئة مستقرة مع الإله.

و نجد لمحة عن نفس هذه الحقيقة في تعاليم يسوع حينما يقول « إنه لم الأسهل للجمل أن يمر من خلال خرم الإبرة عن وصول الغني لمملكة السماء» و يتضمن نفس المعني حينما نحن نكنز و نحتفظ للأشياء لدينا فإننا بذلك نفصل أنفسنا عن الآخرين، فممتلكاتنا هي نفسها قيودنا. فالإنسان الذي يجمع و يدخر الموارد لنفسه فيصعب علية ، مع تضخم ذاته المستمر، أن يمر من خلال أبواب إدراك و فهم

هذا العالم الروحاني، ذلك هو عالم الانسجام المثالي، فإنه يحجز نفسه داخل جدران ممتلكاته الضيقة.

هكذا فإن ما تتضمنه تعاليم أبانيشاد : هو أنك لكي تجده الإله معك عليك احتضان كل الأشياء حولك. وفي السعي وراء الثروة فإنك تتخلي عن كل شيء من أجل الاستحواذ علي القليل من الأشياء، و هذا ليس هو الطريق لكي تصل للكمال.

لا يدرك بعض فلاسفة العصر الحديث في أوروبا – ممن هم مَدينين بشكل مباشر أو غير مباشر للأبانيشاد– هذا الفضل و الدين، و يعتقدوا أن براهما الهند هو شيء مجرد و إنكار لكل ما هو موجود في العالم. ووفقاً لهذا الاعتقاد ، فإن العالم اللامحدود هو ذلك العالم الموجود فقط في الفلسفات (ما وراء الطبيعة). قد يكون هذا الاعتقاد السائد من قبل مازال موجود حتى الآن لدي البعض من مواطنينا. و لكن بكل تأكيد ليس ذلك هو الروح و الاعتقاد السائد لدي العقلية الهندية. فعوضاً عن ذلك، فلدي هؤلاء الهنود إدراك و إيمان راسخ بانعكاس العالم اللامحدود في كل الأشياء حولنا.

فنحن نستمتع برؤية – الأشياء في الكون التي تغلفها العناية الإلهية.

و أسجد لله أكثر و أكثر حينما تظهر قدرته في النار و الماء، حينما يخترق كل العالم، تلك القدرة التي في المحاصيل السنوية و أيضاً في تلك الأشجار الموجودة طوال العام.

بعد ذلك ، هل من الممكن أن يكون الرب منفصل عن العالم؟. فعلي العكس تماماً، فذلك لا يدل فقط علي وجود الله في كل شيء، و لكن أيضا ً الترحيب بهذا التجلي المنعكس في كل مكونات العالم. و يعتبر هذا الإدراك- إدراك رجال الأوباناشيد لوجود الله في الكون- هو احدي مشاعر العشق العميقة لديهم. فتلك هي الحقيقة الوحيدة التي تجعل أي شيء أخر هو واقع. فهذه الحقيقة ليست فقط حقيقة المعرفة و لكن أيضاً حقيقة الحب الشديد.

فنسجد له في كل مكان أكثر و أكثر. و يعترف بذلك ريشي ، الذي خاطب كل العالم في حالة فجائية من النشوي و الابتهاج حينما قال: أنصتوا لي يا أبناء تلك الروح الأبدية، من يقيم في هذا المكان المقدس، فإني أعرف ذلك الوجود الأسمى المقدس الذي يشع ضوئه في كل مكان و يتعدي أي ظلام.

هل لم نشعر بتلك البهجة الغامرة لتلك التجربة المباشرة و الايجابية التي لا يشوبها أي نوع من الغموض و البلادة؟

و بوذا الذي قام بتطوير الجانب الواقعي في خطب الأوباناشيد ، قام بتدريس هذه الرسالة حينما قال، في كل شيء – – سواء ذلك فوق أو أسفل، بعيد أم قريب، مرئي أم غير مرئي- يجب علي الإنسان يحمي هذه الصلة الغير المحدودة للحب بالابتعاد عن أي عداء أو رغبة في القتل. و عندما يعيش بهذا الإدراك و الوعي- سواء كان واقف أم سائر ، جالس أم راقد نوماً ، فإنه يعيش و يتحرك و يتمتع من خلال انبعاث روح براهما.

ما هي تلك الروح؟ يقول الأوباناشيد – أنه هو في الأساس ، من يمد الجميع بالضوء و الحياة، فيعتبر هو مصدر الوعي بالكون،ذلك هو براهما. و حينما نشعر بالأشياء و تدركها فيكون ذلك من خلال روحة. فمن خلاله تجذب الشمس الأرض، و أيضاً من خلاله تنتقل الأمواج الضوئية من كوكب إلي كوكب.

ليس فقط في الفراغ، بل أن هذا الضوء و الحياة، و هذا الكائن الحسي يسري في أرواحنا.

فهو لدية الإدراك في السماء، ذلك العالم المتسع ، و لدية أيضاً الإدراك في عالم القوة.

و هكذا فمن أجل الوصول لإدراك العالم، فيجب أن ندمج و نوحد مشاعرنا مع كل المشاعر اللامحدوده بشكل دائم. و في الواقع، فإن التطور البشري الحقيقي الوحيد يتوافق و ينسجم مع هذا الاتساع من المشاعر. فكل العلوم و الشعر و الفلسفة و العلم و الفن و الدين تهدف إلي مدّ و توسيع نطاق الوعي عندنا للوصول إلي ميادين و حقول أعلي و أكبر. لا ينال الإنسان حقوقه من خلال

الحصول علي مساحة أكبر ، و لا من خلال السيطرة الخارجية، ولكن حقوقة تتسع فقط بالحد الذي به يكون إنسان حقيقي، و تقاس درجة حقيقته كإنسان من خلال نطاق وعيه و إدراكه.

و في سبيل الحصول علي حرية هذا الإدراك، فيجب علينا دفع الثمن. ما هو هذا الثمن؟ هو اكتشاف نفسك. فيمكن لنا اكتشاف أنفسنا عن حق فقط من خلال إنكار الذات. و حسبما يقول الأوباناشيد فلكي تكسب فيجب عليك التحلي بالعطاء

في جيتا، يتم نصح البشر بالعمل و تجاهل أي تلهف لنتيجة العمل و عدم الاكتراث بها. العديد من الغرباء تبين لهم ، من هدف تلك الخطبة، هو رؤية هذا العالم علي إنه شيء غير حقيقي يكمن في داخل تلك المبالاة لما يتم تدريسه بالهند. و لكن العكس هو الصحيح.

فالإنسان الذي هدفه هو تعظيم و تبجيل نفسه لا يعطي أي شيء أخر حقه. و مقارنةً مع الأنا، فإن أي شيء أخر في العالم بالنسبة له غير حقيقي.

و لذلك فلكي نصبح علي أتم الوعي بحقيقة العالم كله، فعلي الإنسان أن يحرر نفسه من عُقد رغباته الشخصية. ذلك هو المنهج الذي يجب علينا السير به لإعداد أنفسنا للأدوار الاجتماعية التي نعيشها و لمشاركة الآخرين في أعبائهم. كل مجهود مبذول من أجل الحصول علي حياة أفضل و أكبر يتطلب من الإنسان أن» يحصل علي المكسب من خلال العطاء و لا يكون طماعاً». فالكفاح و الجهاد في الانسانيه هو من أجل توسيع إدراكنا بوحدة و تناغم الفرد مع كل العالم.

لا تعتبر الهند هذا العالم اللا محدود شيء تافه و فارغ. و لكن لدي الريشيين بالهند اعتقاد راسخ أنه « لكي يتثني لك معرفة ذلك في الحياة فعليك أن تكون إنسان حقيقي، وليس معرفتك هذه هي الدمار و الهلاك». فكيف تتعرف علي هذا العالم؟ « من خلال إدراكه في أي و كل شيء». ليس فقط في الطبيعة و لكن أيضاً في العائلة، و في المجتمع و البلد التي نحن فيها، و كلما زاد إدراكنا من خلال التناغم الكلي، كلما كان أفضل و أصلح لنا». و عندما نفشل في إدراك هذا العالم و معرفته ، فإننا بذلك نقود أرواحنا نحو الهلاك.

و ينتبني شعور رائع بالبهجة و الأمل في مستقبل البشرية حينما أدرك أنه في وقت من الأوقات في الماضي البعيد كان يقف شعراء الرسل ، تحت ضوء الشمس الرهيب في سماء الهند، لتحية العالم مع التقدير الرائع لباقي العشائر. فذلك ليس هلوسة بشرية. و لا هو رؤية الإنسان متجسد في كل مكان من خلال صور مبالغ فيها مضحكة ، و لا رؤية أن الدراما الإنسانية تقوم علي أساس ميزان ضخم في ميدان التنافس بين الأضواء السريعة و بين الخيالات. فعلي العكس تماماً، إنما هو تعدي الحواجز التي تقيد الإنسان، ليصبح أكبر من أن يكون مجرد إنسان ، و يكون واحد ضمن المنظومة الكلية للأشياء. فذلك ليس فقط مجرد لعب بالخيال، و لكنة تحرر الوعي من كل أنواع الغموض و تضخيم الذات. فكان

لدي هؤلاء الرائيين القدامى شعور توصلوا له من خلال الوصول بعقولهم لعمق صافي ، هو أن تلك الطاقة التي تهتز و تصل إلي الأشياء اللا محدودة في العالم تظهر و تتجلي داخلنا و تشكل الوعي فينا، و بذلك لا يكون هناك أي انفصال في الوحدة و التناغم. و لا يوجد أي فجوات في نظرة الكمال المستنيرة لهولاء الرائيين. فهم حتي لا يعترفوا بأن الموت يشكل أي فاصل في الوجود. فإن هذا العالم اللامحدود ينعكس أيضاً في الموت، فهو عالم سرمدي أبدي. فلا يوجد لديهم أي تعارض واضح بين الحياة و الموت، فبكل تأكيد منهم « هذه هي الحياة التي هي أيضاً الموت»، فيرحبوا بالموت بنفس الهدوء المنبعث من سعادتهم ، « فالحياة هي الحياة فيما هو ظاهر و هي أيضاً الحياة عند المغادرة». فهي الماضي المختفي و هي المستقبل القادم. فمجرد الظهور و الاختفاء عندهم ،ظاهرياً، مثل أمواج البحر، و أن هذه الحياة الدائمة لا تعرف أي تعفن أو نقصان.

فكل شيء ينبع من هذه الحياة الأبدية و يتحرك مع الحياة ، فهو شيء هائل أيضا ً من أجل هذه الحياة.

هذا هو التراث الرائع الذي تركة لنا السلف و نحن علي وشك أن ندعي امتلاكه، هذا هو الهدف من حرية الإدراك المنشود. فهو ليس عقلاني أو عاطفي فقط و لكن له أساس أخلاقي يُترجم إلي أفعال. في الأوبانيشاد – الذات العليا توجد في كل مكان، و لذلك فهي الخير الفطري داخل الإنسان. حتي يكون هناك صله و انسجام حقيقي – من خلال المعرفة و الحب و مساعدة الجميع– مع كل الكائنات. و هكذا فحينما يدرك الإنسان ذاته من خلال الذات الإلهية الموجودة في كل مكان فذلك هو جوهر الخير، و هو المبدأ و الفكرة الرئيسية لخطب الأوبانيشاد – فتلك الحياة هي حقاً هائلة!

2- إدراك الروح

* (ملحوظة بالنسبة للكلمات الموجودة باللون الأحمر في النص المترجم ، فمعانيها في أخر صفحة).

لقد رأينا كيف كان طموح بلاد الهند القديمة في أن تحيا و تعيش و تستمتع بالحياة بواسطة برهما. تلك الروح التي يملؤها الإدراك و منتشرة في كل مكان من خلال توسيع نطاق الإدراك لدي العالم كله. قد يدعي البعض أنه يستحيل علي الإنسان تحقيق ذلك، فإذا كان توسيع نطاق الوعي هو فقط عملية ظاهرية ، ليس لها نهاية، أي بمثابة عبور المحيط بعد الغوص في مياهه. ومع محاولات الإنسان في إدراك كل شيء، فسينتهي به المطاف لعدم إدراك أي شيء.

لكن، في الواقع، ليس ذلك سخف كما يردد البعض. فكل يوم يعمل الإنسان في دأب علي حل مشكلة توسيع حيز منطقته و التعامل مع ما عنده من أعباء. تلك الأعباء و المسئوليات عديدة و كثيرة جداً علية ، و لكنه يعلم أن مع إتباعه نظام معين فإنه يخفيف من عبء هذا الحِمل. و عند شعوره بالصعوبة و الثِقل ، فهو يعلم تماماً أن ذلك بسبب عدم قدرته علي إدراك هذا النظام الذي يضع كل شيء في مكانة الطبيعي و يوزع الأعباء بشكل متوازن.

و البحث عن هذا النظام هو في الواقع بحث عن تلك التوحد ، فهي سعينا للتوفيق- بين التعقد ذو العوامل المتغايرة للأشياء الخارجية - من خلال التعديل الداخلي. و مع البحث عن هذا النظام فإننا بالتدريج نكتشف القوة الواحدة التي تملك الجميع و عندها فعلاً نجد تميزنا الأعلى و الدائم.

و تقوم تلك القوة علي أساس قانون الوحدة - لو فقط نتمكن من معرفتها- فتصبح هي مصدر قوتنا الدائم. و المبدأ العظيم للحقيقة هو القوة التي تكمن فيها ، تلك هي حقيقة الوحدة التي تشمل التعددية. فالحقائق الواقعية عديدة و لكن تظل الحقيقة التي نصل لها بالإدراك واحدة. فعقل الحيوان يعلم هذه الحقائق الواقعية بينما عقل الإنسان يعرف و يدرك تلك الحقيقة المعنوية . فالتفاحة تسقط علي الأرض و المطر أيضاً يسقط علي الأرض - فقد تجهد ذاكرتك حول هذه الحقائق و لا تستطيع أن تصل لنهاية و لكنك عندما تفهم و تدرك قانون الجاذبية فإنك تستطيع أن تستغني عن كل هذه الحقائق. و تصل لحقيقة واحدة تحكم كل الحقائق الواقعية التي لا حصر لها. فاكتشاف تلك الحقيقة هي المتعة المطلقة التي ينالها الإنسان -- هي حرية و تحرر العقل. فمجرد معرفة الحقيقة الواقعية مثلها مثل الطريق المصمت الذي لانهاية له و يؤدي إلي اللا شيء. إنما الحقيقة المعنوية هي التي تفتح الأفق العقلي للإنسان، و تصل بنا إلي العالم المطلق.

و هذا هو السبب وراء اكتشاف دارون بعض من تلك الحقيقة البسيطة في علم الأحياء و لكن لا يتوقف ذلك عند هذا الحد، فهذا الاكتشاف هو كالمصباح الذي يضيء الطريق لحياة الإنسان و لتفكيره متجاوزاً الغرض. و بذلك نجد تلك الحقيقة الواحدة – التي تتولي كل الحقائق الواقعية– ليست فقط مجرد حاصل لهذه الحقائق و لكنها تضاهيها في كل الجوانب، و بذلك يكون الهدف هو الحقيقة المطلقة.

و بالمعرفة التي تكون نتيجة للإدراك ، فالإنسان يستطيع أن يدرك بعض من تلك الحقيقة المركزية الأساسية التي من خلالها يستشرف مجال أوسع أخر. و هذا هو الهدف من رؤية الأوبانيشاد حينما قال –اعرف روحك–. بشكلٍ أخر هو إدراك المبدأ الواحد العظيم لتلك الوحدة و الانسجام الذي لدي كل إنسان.

فكل دوافع الأنانية و رغباتنا الشخصية تحجب عنا الرؤية الحقيقية للروح. فالرغبات تدل علي تلك النفس المتقوقعة في العالم الضيق. فعندما ندرك ذاتنا، فلنا حينئذً أن نلاحظ كيانا الداخلي الذي يتعدي الأنا و التمركز حولها و نصل إلي علاقة أعمق مع كل شيء.

فالأطفال، عندما تبدأ في تعلم كل حرف منفصل من حروف الهجاء لا تجد متعة في ذلك، و ذلك لأنهم يفقدوا الهدف الحقيقي من للدرس. و في الحقيقة، فإن معرفة الحروف وحدها و كأنها أشياء منعزلة فإن ذلك يكون مضجر و متعب لنا. و لكن نشعر بالمتعة حينما فقط عندما نكون كلمات و جمل و ننقل من خلالها فكرة معينة.

و كذلك، فعندما تنفصل أرواحنا و تُسجن داخل أسوار النفس الضيقة فإنها تفقد مغزاها. و لكن من أجل الوصول لجوهر الوحدة، فالروح تستطيع أن تكتشف الحقيقة من خلال إدماج نفسها باقي الأشياء، و حينئذ تحصل الروح علي المتعة. و ينتاب الإنسان القلق و يعيش في حالة من الخوف طالما أنه لا يدرك وحدة و اتساق القانون في الطبيعة و يصبح العالم حوله غريب. ذلك هو القانون الذي به لا يكتشف الإنسان أي شيء أخر غير الوعي بالانسجام الموجود بين السبب (روح الإنسان) و آليات العمل في هذا الكون. ذلك هو العلاقة المترابطة للوحدة التي من خلالها الإنسان يتصل بالعالم الموجود حوله. فيشعر في ذلك الوقت بسعادة غامرة في اكتشافه لهذه الصلة ، فحينها يدرك نفسه في العالم و البيئة حوله. فلكي تستطيع أن تدرك و تفهم شيء فيجب أن يكون هذا الشيء له علاقة بنا. ففهم أنفسنا من خلال العالم الخارجي يجعلنا نشعر بالسعادة و الغبطة.

فهذه العلاقة من الفهم هي علاقة جزئية ، و لكن تبقي علاقة الحب كاملة. ففي الحب يختفي الشعور بالاختلاف و تحقق روح الإنسان ما ترمي إليه في الكمال حولها، و هذه العلاقة (علاقة الحب) تتجاوز حدود النفس و تصل إلي أعتاب العالم اللامحدود. لذلك فالحب هو أعظم نعمة يَنعم الإنسان بها، فمن خلال الحب فقط يكتشف الإنسان أنه أكثر من مجرد نفس واحدة منعزلة عما حولها، و أنه واحد ضمن الكل.

و يظل مبدأ الوحدة دائماً في روح الإنسان مبدأ حيوي و ضروري، فبه تتشكل العلاقات بشكل أبعد و أوسع من خلال الأدب و الفن و العلم و ومن خلال المجتمع و السياسة و الدين. فالكاشفين العظماء في الهند هم من أظهروا المعني الحقيقي للروح عن طريق إعطاء الروح فرصة لحب البشرية. و في سبيل الحب يتصدوا للافتراء و القذف و الاضطهاد و الحرمان بل الموت أيضاً. فهم يعيشوا حياة الروح، و ليست حياة الأنا و النفس، و هم بذلك يثبتوا لنا الحقيقة الدائمة للإنسانية. هؤلاء ممن نسميهم « أنُاس الروح العظيمة».

و في واحدة من تعاليم الأوبانيشاد فيقول : ليس عليك أن تحب ابنك لما لديك من شوق و حب داخلي تجاهه و لكن إنك تحب ابنك لأنك تحب و تتصل مع روحك المتمثلة فيه. و حينما نجد ذلك المعني عند الشخص الذي نحبه ، أينً كان من نحبه، فإننا نجد روحنا في أسمي شعور للوجدان. و تكمن الحقيقة النهائية لوجودنا في ذلك المعني. فالروح المقدسة، موجودة بداخلي و في ابني و السعادة التي يشعر بها ابني ما هي الإ إدراك لهذه الحقيقة. فيُنظر الآن لتلك العلاقة علي إنها حقيقة واقعية و عادية، و لكن حينما تفكر فيها فإنها رائعة، فإن سعادة و حزن ما نحبهم هو سعادتنا و حزننا -- كلا فهم أكثر من ذلك. لماذا كذلك؟ لأنه من خلال هؤلاء نتطور و ننمو بشكل أوسع، و فيهم نلمس تلك الحقيقة التي تفسر العالم بإكماله.

و دائماً ما يحرمنا حبنا ،لأطفالنا، لأصدقائنا و لمن نحبهم ، من الوصول لمرحلة أعمق من الإدراك. مما لا شك فيه أن هذا النوع من الحب له أن يوسع نطاق الوعي لدينا، الإ أنه يحد من الانطلاق الحر للروح و الوعي. بالرغم من أن ذلك هو بمثابة الخطوة الأولي و أن كل التساؤلات و الأقاويل تكون حول هذه الخطوة، إلا أن تلك الخطوة كفيلة بأن تظهر لنا طبيعة أرواحنا الحقيقية. و منها نعلم، بكل تأكيد، أن أعظم متعة لدينا تكون حينما نتخلى عن الأنانية و نبدأ في التوحد و الانسجام مع الآخرين. يعطي لنا هذا الحب قوة و بصيرة جديدة و جمال عقلاني بدلاً من الحدود التي نحن عندها. و لكن يقف هذا الحب إذا فقدت هذه الحدود مرونتها، و تعمل بشكل معاكس له. و بذلك تصبح علاقتنا بالأصدقاء محدودة و تتولد الأنانية و القسوة لدي عائلتنا، و تنعزل كل أمه بنفسها و يظهر العداء و العدوان تجاه باقي الأجناس. و كأننا نضع ضوء داخل أحد المحتويات المغلقة الحبس التي تسطع بشكل لامع إلي أن تتجمع الغازات السامة و تخمد اللهب. بالرغم من اكتشاف الحقيقة قبل الانتهاء- فإن الضوء يمنح متعة الحرية من خلال قبضة الظلام الأعمى و البارد و الفارغ.

و بالنسبة للاوبانيشاد، فإن مفتاح الإدراك الكوني و إدراك الإله هو في إدراك الروح. و بذلك تكون هي تلك الخطوة الأولي ،بعيداً عن النفس، نحو إدراك الحرية الاسمي.

و علينا أن نعي من خلال اليقين المطلق أننا في الأصل من تلك الروح المقدسة. هذا ما نستطيع فعلة من خلال السيطرة علي النفس، فمن خلال ترك كل أنواع الكبر و الطمع و الخوف، و أيضاً مع

معرفة أن الخسائر الدنيوية و الموت الجسدي لا يمحو تلك الحقيقة و عظمة الروح فينا. فالكتكوت الذي يخرج من البيضة و من عزلته داخل البيضة يعرف أن تلك القشرة الصلبة التي كان بها لفترة طويلة ، هي في الواقع، ليست أبداً جزء من هذه الحياة. فتلك القشرة شيء معدم ميت لا ينمو و لا يعكس أي شيء من العالم الشاسع حولها الذي توجد فيه. بالرغم من إنها تبدو كاملة و ذات استدارة رائعة بشكل مبهج، إلا أن ذلك الكتكوت يجب أن يخرج و يندفع من تلك القشرة حتى يظفر بحرية الضوء و الهواء، و بذلك فيكون الغرض الكامل لحياة الطير قد تحقق.

في لغة الهند الأدبية القديمة (السنسكريتية)، يطلقون علي الطير ذلك الكائن المولد من جديد. و ذلك هو نفسه بالنسبة للإنسان الذي يسير بالقيد النفسي و الفكر العميق لفترة من الزمن لا تقل عن اثني عشر عاماً و معه البسيط من الاحتياجات و لدية سريرة نقية و علي استعداد لتحمل كل مسئوليات الحياة من خلال مجال متسع للروح غير مكترث به. و يُولد من جديد حينما يخرج من الغلاف الأعمى الذي يحوط الروح و يخرج للحياة الجديدة (حرية الروح)، و ينشأ بينه و بين العالم حوله صله حتى يصبح واحد ضمن منظومة كلية.

و يا من يستمع إلي أريد أن أحذركم و أؤكد علي هذا التحذير من فكرة مدرسي الهند ممن يحثوا علي نكران الذات و نكران العالم ذلك الذي يؤدي إلي الفراغ دون الجدوى. فهدفهم هو إدراك الروح، بمعني أخر، هو الفوز بالعالم من خلال الحقيقة الكاملة.

و عندما يقول يسوع، « أن المقدسون هم الضعفاء»- هؤلاء من يرثوا الأرض- ذلك هو مقصده. فهو ينادي بتلك الحقيقة التي عندها الإنسان يتخلي عن كبر النفس و يحصل علي إرثه الحقيقي. و لا يحتاج بعد ذلك لأن يناضل للحصول علي مكانه في العالم، لأن تلك الروح هي الأمان له في كل مكان الذي يراه في أبديه الروح. يتعارض الكبر مع الوظيفة الملائمة للروح التي تتمثل في إدراك النفس من خلال استكمال الوحدة بالاندماج في العالم و التوحد مع إله الكون.

و في خطبته لـــــ سادهو سمها بوذا، يقول – يا سمها- أنه حينما نشير بأصابع الاتهام لبعض الأفعال فهذا فعلاً صحيح – و لكن هذا الاتهام يكون بالنسبة للأفعال التي فقط تؤدي إلي الشر سواء علي مستوي الكلام أو الأفكار أو الأفعال. أيضاً – يا سمها- صحيح، أن أعظ من الدمار، دمار الفخر و الجشع و الشر و الجهل و أوصي بالتسامح و الحب و الإحسان و الصدق.

و معتقد الحرية الذي ينادي به بوذا كان الحرية من رق و عبودية Avidya ، فتلك العبودية هي الجهل الذي يضلل إدراكنا، و يقيد هذا الإدراك ، فيخلق داخلنا حاله انعزال قاسي للأنا، و به يصبح مصدر الفخر و الطمع و الوحشية شيء عارض في معرفة الذات. و عندما ينام الإنسان فإنه يغمض عينية و يغوص داخل النشاطات الضيقة للعالم المادي حوله. فهو يعيش، و لكنه لا يعرف تلك العلاقات المختلفة التي بينه و بين العالم حوله--، و بذلك فهو لا يعرف نفسه. و حينما يعيش الإنسان حياه-

Avidya – فإنه محجوز داخل نفسه. إن ذلك هو النوم الروحي المقيد ، و لا يصل إدراكه إلي الحقيقة الأسمى التي تحيط به، و نتيجة لذلك لا ينفصل عن معرفه ذاته.

عندما يصل إلي روح البوذا – البوذا– فإنه يستيقظ من ثبُات النفس إلي اكتمال الوعي، و يصبح شخص بوذي.

ذات مرة قابلت اثنان من نُساك طائفة دينية معينة في قرية بنغال. و سألتهم « هل يمكنكم أن تخبروني بالسمات الخاصة بدينكم ؟» فتردد أحدهم للحظة ثم قال « ليس من السهل تحدد هذه السمات» ، و قال الأخر « لا، فذلك أمر في غاية البساطه». فنحن ننتظر، قبل كل شيء، أن نعرف روحنا من خلال توجيه عَالمِنا الروحاني، و مع تلك المعرفة نستطيع أن نتوصل إلي اكتشاف تلك الروح» ، فسألته « لماذا إذنً لم توجه تلك التعاليم إلي الناس في العالم؟». فأجاب « من يشعر بالعطش يأتي إلي النهر». « و لكن، هل تجد الأمر كذلك، هل فعلاً تأتي الناس؟» فابتسم ابتسامه هادئة و أجاب علي بدون تعجل وقال لي « فهم يجب عليهم أن يأتوا، الفرد و الجميع».

نعم، أنه علي حق، ذلك الناسك البسيط في بنغال الريفية. فالإنسان فعلاً منفصل عن تلبية احتياجاته التي تفوق المأكل و الملبس. فلا يجد نفسه أبداً. فتاريخ الإنسان هو تاريخ رحلته للعالم المجهول بحثاً عن إدراك الروح و إدراك نفسه الأبدية. و مع نهوض و سقوط الإمبراطوريات، من خلال تكوين أكوام من الثروة ثم بعثرتها في التراب، و من خلال إيجاد الأجسام الشاسعة من الرموز التي تعطي شكل لأحلامه و لطموحه، ثم إلقائها بعيداً عنه مثل العاب الطفولة الرث، و من خلال صنع مفاتيح سحرية مزيفة لفتح الغاز الخلق و الكون، و من خلال إهدار الجهد (الجهد الذي بذله عبر السنين) و وجوعه إلي ورشته تارة أخري ليحاول صنع شكل جديد مناسب. نعم، عن طريق ذلك تنتقل الناس من عهد إلي عهد في سبيل البحث عن الإدراك الكلي للروح. الروح التي هي أعظم مما يسعي الإنسان لحصده و تجميعه و من الأفعال التي ينجزها، و من النظريات التي يضعها، فالروح التي اتجاها إلي الأمام لا يكبحها الموت و الانحلال.

فأخطاء الإنسان و فشله ،ليست بأي شكل من الأشكال، تافهة و صغيرة ، بل أن هذه الأشياء تترك في طريقة البصمات الرهيبة، ومن هنا تكون معاناته الهائلة مثل ولادة طفل ضخم، فتلك الأخطاء هي استهلال لإنجاز مداه غير محدود.

يسير الإنسان و مازال يعاني الاستشهاد بمختلف الطرق، و مؤسساته هي المذابح التي بناها و إليها يقدم الإضحيات اليومية، الرهيبة في نوعيتها و الهائلة في الكم. كل ذلك يكون بدون شك لا معني له و غير محتمل لو لم يكن الكل معه يشعر بتلك المتعة العميقة للروح معه، فهو يجرب تلك القوة المقدسة أثناء المعاناة و يثبت ما لدية من مصادر لا تنفذ عن طريق إنكار الذات. يأتي الحُجاج فعلاً سواء الفرد

أو الكل، إلي ميراثهم الحقيقي في العالم، فهم بذلك يقوموا بتوسيع إدراكهم، و التماس الوحدة أكثر و أكثر، و الدنو أكثر من تلك الحقيقة المركزية الشاملة.

فقر الإنسان سحيق لا قعر له، فرغباته غير نهائية إلي أن يصبح علي وعي تام بروحة. حتى ذلك الحين، فإن العالم بالنسبة له هو حاله جريان مستمر – عبارة عن خيال موجود و غير موجود. و بالنسبة للإنسان الذي يدرك روحة فيكون هناك مركز محدد للكون حوله يستطيع الكل أن يجد مكانه المناسب فيه ، و من ذلك المكان فقط يستطيع أن يرسم و يستمتع بنعيم الحياة المتناغمة و المنسجمة.

هذا هو الوقت الذي كانت فيه الأرض فقط عبارة عن كتله ضبابيه ذرتها تتبعثر في انفصال من خلال تمدد الحرارة، آنذاك لم يكن هناك بها أي وضوح سواء علي مستوي الشكل أو الجمال أو الهدف، و لكن فقط الحرارة و الحركة.

و بالتدرج، مع تكاثف الأبخرة في صورة دائرية موحدة كاملة من خلال قوه تعمل من أجل تجميع كل الأشياء الضالة و وضعها تحت سيطرة مركزية، عند إذن تكون للأرض مكان مناسب لها بين باقي الكواكب ضمن نظام المجموعة الشمسية، مثلها مثل قلادة الزمرد في عقد من الماس. هذا ما يحدث مع أرواحنا، حينما تكون حرارة و حركه –الدوافع و العواطف الضالة– مشتته في كل الجوانب ، و لا نتمكن من العطاء و لا الاستقبال بشكل حقيقي. و لكن عندما نجد مركز روحنا من خلال قوة النفس و قوة الانسجام بين كل العوامل المتنازعة و التوحيد بين تلك الأجزاء، تقل انطباعاتنا المنفصلة بسبب الحكمة، و تجد كل الدوافع الوقتية للقلب ما ينقصها في علاقة الحب الاسمي المقدسة، ثم تأتي بعد ذلك كل التفاصيل البسيطة لحياتنا التي تكشف عن الغرض النهائي لها، حينئذ ً تتوحد كل أفكارنا و أفعالنا و تتحد مع بعضها البعض في صورة انسجام داخلي.

يقول الأوبانيشاد، بكل تأكيد، – عليك أن تعرف ذلك الواحد، الروح. لأنها هي الكوبري الذي يؤدي إلي الحياة الأبدية–.

هذه هي النهاية المحتومة للإنسان، في أن يجد – الشيء الواحد– الذي يوجد بداخل تلك الروح المقدسة، تلك هي الحقيقة، نفسه و روحه، المفتاح الذي به يفتح بوابه الحياة الروحية، المملكة السماوية المقدسة. فرغبات الإنسان عديدة ،و يسير بجنون خلف الأشياء المختلفة للكون سعياً منه لإشباعها، فمن خلال الروح يستطيع الإنسان أن يجد ما يسعي إلية.

لكن، هذه –الروح الواحدة– التي فيها يكون الوصول للوحدة – الوحدة في المعرفة و الوحدة في الحب و الوحدة في الأهداف في حياتنا. فأعلي شعور للمتعة هي التي عندما تصل إلي الشيء الواحد اللامحدود ضمن الوحدة الأبدية. ووفقا ً لقول الأوبانيشاد– فمن يمكنه الحصول علي المتعة الدائمة هم ذوي العقول الروحانية الهادئة، و لا أحد غيرهم يمكنه الوصول لتلك المتعة– التي تكون من خلال

إدراك هذا الكائن الظاهر في أرواحهم هذا الكيان الذي يعكس هذا الجوهر الواحد في تعدديه من الأشكال.

و مع كل الاختلافات التي في العالم، فإن الكيان الواحد فينا يسري مجراه تجاه أيضاً الكيان الواحد في كل شيء، تلك هي الطبيعة و متعتها. و لكن بأي طرق ملتوية أخري، فإنه لا يستطيع هذا الكيان الواحد أن يصل لهدفه لو لم يكن له ضوء خاص به من خلاله يستطيع أن يصل للرؤية التي يرغب أن يراها في وجود هذا الضوء. و رؤية الكيان الواحد المقدس الذي في أرواحنا هو حدس مباشر و فوري، و لا يقوم أبداً علي أي تجربه أو برهان عملي. و تري أعيننا دائماً الشيء ككل، ولا تنقسم إلي أجزاء، بمعني أن كل الأجزاء متجمعة معاً لتكون وحده بين بعضها البعض. فحدس إدراكنا الروحي ، من خلاله يدرك الإنسان كلياً و بشكل طبيعي وحده هذا الكيان الواحد المقدس.

يقول الأوبانيشاد:- أن هذا الإله الذي يتجلي فيك عن طريق الأنشطة الكونية فهو يسكن دائماً في قلب الإنسان كروح مقدسة. فهولاء من يصلوا إليها ،من خلال الإدراك المباشر للقلب، هم فعلاً من يصلوا إلي العالم المطلق الدائم.

أنه - -Vishvakarma الذي يظهر في العديد من الأشكال و القوي المتجلية في الطبيعة، و لكن تجلية الداخلي في أرواحنا يكون من خلال الاندماج فيما بينهم و بيننا. فالسعي وراء الحقيقة في الطبيعة يكون بواسطة التحليل و الطرق التدريجية للعلم، و لكن إدراكنا للحقيقة في أنفسنا ذلك هو الحدس . فإننا لا نستطيع أن نصل إلي الروح المقدسة من خلال إضافات المعرفة المتتالية ،التي تُكتسب شيء في شيء حتى مع الدوام و الأبدية. و لأن الروح المقدسة واحده - و غير مقسمه إلي أجزاء، فإننا نصل لتلك الروح – التي هي بمثابة قلب القلوب و روح الأرواح.فلنا أن نعرفه – Vishvakarma – فقط بالحب و السعادة التي نشعر بها و نترك أنانيه النفس و نقف في حاله من التجلي له.

أعمق و أصدق الصلوات هي التي تأتي من القلب البشري لأحد النساك القدامى الهنود: « أنت، يامن تسعي لاكتشاف نفسك، فاكتشف نفسك من خلالي».

نحن نعيش في مأساة حينما نكون مخلوقات تعيش لنفسها-- داخل تلك نفس قاسية و عالمها ضيق، و لا تعكس الضوء، و يظل هناك حجاب بينها و بين العالم اللانهائي حولها. فما لها إذن الإ أن تصرخ من كل الضجة المتضاربة التي بداخلها. أنها ليست تلك الآلة الموسيقية التي تهتز أوتارها مع النغم الداخلي. و حينما يتحسر المكتئب و الحزين علي الفشل، و المتكاسل الذي يندم علي الماضي و ينتابه القلق علي المستقبل ما هو الإ إرهاق للقلوب الضحلة حيث لا يجد أنفسهم، و لا تظهر روح التكشف الذاتي لدينا. و هكذا تأتي صرختنا،» أيها الواحد الرهيب، انقذ روحي بابتسامة التقديس الأبدية الخالدة».

أنه كفن الموت الخانق- أي حب و إمتاع النفس- هو الطمع الغير منتهي، هو كبر الامتلاك، و هو الانعزال المتغطرس للقلب.

" Rudra "، أيها الواحد الرهيب، انتزع بقوة هذا الغطاء المزدوج من الظلام و دع شعاع بسمة التقديس المنقذ يخترق ليل هذه الكأبه و أيقظ روحي». و يخرجني من الخيال إلي الواقع، من الظلام إلي النور، و من الموت إلي البقاء الخالد «. و لكن كيف يستطيع الإنسان أن يأمل في الحصول علي تلك الصلاة الممنوحة؟ فالوصول إلي العالم اللانهائي هو تلك المسافة التي تكمن بين الحقيقة و الخيال، بين الموت و البقاء. لكن يكمُن سد هذه الثغرة التي لا حد لها في اللحظة التي يكتشف فيها الإنسان نفسه من خلال الروح. هناك تحدث المعجزة، لهذه المنطقة المشتركة بين العالم المحدود و العالم اللامحدود. « أيها الأب،أمحو تماماً كل الخطايا !». فالإنسان المخطئ ينضم للعالم النهائي المحدود في مواجهة ضد العالم اللامحدود ، ذلك العالم الثاني الذي أساساً يعيش الإنسان و يكمن داخلة. فيكن هذا هو هزيمة النفس من خلال النفس. و اللعبة الخاسرة التي تحمل معها الخطر، التي فيها الإنسان يخاطر بالكل حتى يحصل علي الجزء.و الخطيئة هي غشاوة تغطي الحقيقة فتشوش صفاء الوعي. أثناء الخطيئة نجري بتلهف وراء المتع، ليس ذلك بسبب جاذبيها ، ولكن بسبب أن الضوء الأحمر لعواطفنا جعلها تظهر بشكل جذاب، فنحن نتشوق للأشياء التي لم تكن عظيمة في نفسها، ولكن بسبب أن الطمع يضخم تلك الأشياء و يجعلها تبدو في نظرنا و كأنها عظيمة.

هذا التضخيم و التزييف لمنظور الأشياء، يهدم الانسجام من حولنا مع كل خطوة نخطوها، فنحن نفقد المعيار الحقيقي للقيم – التي يعلوها الغبار- بسبب الإدعاءات الخاطئة للاهتمامات المختلفة للحياة التي ندعيها مع بعضنا البعض. و إذا لم ندمج كل عوامل الطبيعة لتكون واحدة تحت مظله الروح المقدسة فهذا هو الإخفاق ، و عليه الإنسان يشعر بالغصة و الألم من جراء الابتعاد عن الإله و الصلاة الجادة.»أيها الرب، أيها الأب، أمحو خطياي كلها». « أعطني ما هو خير»، لأن هذا الخير بمثابة الطعام اليومي للروح. و إتباع المتع هو احتجازنا داخل أنفسنا. بالخير فقط نحن نتحرر و نندمج مع الكل. و ذلك مثل الطفل في رحم أمه الذي يحصل علي التغذية من خلال اندماجه و توحده مع الحياة الأوسع لأمه، لذلك فالروح تتغذي فقط علي الخير الذي هو إدراك للعلاقة الداخلية، أي حلقة الوصل مع العالم المطلق (أي من خلال ما يحيط به و يغذيه).

و هكذا يقول الإله، « أن المقدسون هم من يتضوروا جوعاً و عطشاً للاستقامة، التي بها يطفئوا نار الجوع و الظمأ». فالاستقامة هي الطعام الإلهي للروح- لا شيء أخر يحل محلها و يجعل الإنسان يعيش في العالم المطلق- فالاستقامة هي التي تساعده علي النمو و التقدم نحو الأبدية.- فنحن نركع لك يامن تأتي لنا منه متع الحياة.- و نركع لك يا من يمد أرواحنا بالخير. و نركع للذي عنده نجد الخير ، أرقي الخير، فبه نتحد و نندمج مع كل شيء يوجد من في السلام و الانسجام و في الخير و الحب.

صرخة الإنسان هي صرخة من إشباع الروح. إنها تلك الرغبة للتعبير عن النفس التي تجعله يريد الثروة و القوة. لكن علية أن يكتشف أن هذا ما هو إلا مجرد تكديس علي النفس و ليس إدراك لها. من خلال الضوء الداخلي الذي يكشفه و ليست الأشياء الخارجية. عندما يشتعل هذا الضوء ، فإنه في اللحظة ذاتها يعرف أن اعلي درجة للاكتشاف هو اكتشاف الإله المتجلي داخله. فتأتي صرخته من أجل هذا الاكتشاف، اكتشاف النفس الذي به يستوعب تجلي الرب . فيصبح الإنسان إنسان كامل، و يصل إلي أعلي تعبير للنفس عندما تعي الروح بنفسها من خلال روح الإله الغير محدودة –Avih – الذي في جوهرة يكمن الانعكاس.

تكمن المأساة الحقيقية للإنسان في حقيقة أنه لا يصل بشكل كامل إلي ذلك الإدراك، حينما ينعزل بنفسه، و يكون في غمرة بين رغباته. فهو لا يستطيع أن يشعر بالعالم الذي يتعدي بيئته الشخصية، فهذه البيئة المحدودة تحجب عنه نفسه الأعلى. و تختفي عنه الحقيقة. فالصلاة التي تأتي من كيانه الكلي هي « أنت، الذي به روح التجلي، عليك إدراك نفسك من خلالي». يتأصل هذا الشغف – بعمق داخل الإنسان– للوصول إلي أفضل تعبير للنفس أكثر من الجوع و الظمأ المطلوب للتغذية الجسدية، و أكثر من تشوقه للثروة و التمييز.

تلك الصلاة ليست فقط صلاة فردية لذاتها، و لكنها تدخل بعمق في الأشياء، إنها التحفيز المتواصل لـــــ Avih داخل الإنسان. فيظهر العالم المطلق من خلال العالم الغير محدود، هذا هو دافع كل الخلق، لا يظهر ذلك في كمال النجوم السماوية، و لا في جمال الورود. و لكن في روح الإنسان.

فمن هذا المنطلق، تظهر الرغبة من خلال الرغبة، و تفوز حرية الروح بالجائزة النهائية (حرية الاستسلام).

و بذلك، تكن هي نفس الإنسان التي لا يتعقبها الملك العظيم للكون من خلال عرشه— ولكن يترك النفس في حرية. و علي المستوي الجسدي و العقلي– أينما يتصل الإنسان بالطبيعة– فيجب عليه أن يقر بهذا الملك و حكمة، و لكن من داخله فهو حر في ذلك . أنه هو الإله الذي يجب أن نفوز بمجيئه. فهناك يأتي كضيف، و ليس كملك، و بذلك فهو يجب أن ينتظر حتى يتم دعوته. فتلك هي نفس الإنسان التي فيها لا يتدخل الرب بأوامره، لذلك فهو يأتي ليتودد إلينا و ينال حبنا. فقواه المسلحة و قوانين الطبيعة، تقف خارج بوابته، و يكون فقط الجمال و رسول الحب المسموح لهم بالدخول إلي الحرم الملكي.

الفوضى تكن فقط مع الرغبة ، حيث يكن فقط في نفس الإنسان الخلاف و التعارض بين الزيف و الاستقامة التي تقع تحت عرشه. و في طريقنا نتقابل مع هذه الأشياء التي نصرخ منها أثناء معاناتنا، « لا يمكن التغلب علي تلك الفوضى المطلقة إذا كان هناك إله!» ففعلاً ،الإله يقف معناً جنباً إلي جنب من خلال أنفسنا، فلديه صبر يقظ لا نهاية له، و لا يجبرنا أبداً علي أن نفتح له الباب إذا كان مغلق.

فيجب لأنفسنا أن تصل إلي المعني الأبدي لها،حيثما تكون الروح، و ليس من خلال إرغام قوة الإله و لكن من خلال الحب، و هكذا نصبح في توحد مع الإله بالإله.

هذا الإنسان الذي تكون روحة في توحد مع الإله ، يشعر بتلك الروح كأنها أمامه مثل الوردة المقدسة للإنسانية. فالإنسان يكتشف في الحقيقة رؤية ذاته . و يظهر له Avih في روحة في أفضل تجلي له . فنري توحد للرغبة المقدسة مع رغباتنا، و اندماج حبنا مع الحب الدائم.

و من أجل ذلك، فإننا في بلدنا (الهند)، الشخص الذي يحب الإله عن صدق يستقبل هذا التجلي من الناس، ذلك ما يعتبره الغرب تدنيس للعقائد . و لكننا في الهند نري فيه تجسيد و اكتمال لإرادة الإله، و كل العقبات الأكثر صعوبة تزول مع تجلية، و بذلك فإن المتعة و السعادة لدي الإله تزدهر و تكتمل تماماً في الإنسانية. فمن خلاله نجد العالم بأكمله قد امتلئ بالراحة و المرح المقدس. فحياته يشع فيها النور من خلال حب الإله، فنجعل كل حبنا الدنيوي متألق و لامع. كل العلاقات الأساسية في الحياة، و كل خبراتنا بما فيها من سعادة و ألم، تتجمع حول ذلك لتكشف لنا عن الحب المقدس للإله و ذلك من خلال ما نشهده في الدراما التي فيه.

هذا اللغز المطلق المقدس يمر عبر ما هو بسيط و عادي، مكوناً من خلالها سيمفونية موسيقيه تفوق الوصف. الأشجار و النجوم و التلال الزرقاء تظهر لنا كرموز تحمل معها من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بالكلام. فيبدو لنا، في ذلك الوقت ، أننا نري الإله في كل فعل للخلق في هذا العالم الجديد عندما ترفع روح الإنسان الستار الثقيل من عليها و تكشف نفسها و عندما ينكشف عنها النقاب و تصبح وجهاً لوجه مع المحب الأبدي.

و لكن ما هذه الحالة؟ إنها مثل صباح يوم في فصل الربيع، متنوع في حياته و جماله، لكنه في نفس الوقت يوم واحد و متكامل مع بعضة. عند إنقاذ روح الإنسان من اللهو و الضياع فإننا نجد أنفسنا في تلك الوحدة المنشودة، و عليه يصبح إدراك العالم المطلق فجاءه مباشر و طبيعي كأنه ضوء كالضوء اللهب. فنسوى بين كل صراعات و تناقضات الحياة، فالمعرفة و الحب و العمل يسيروا في حاله كبيرة من التناغم، و تصبح السعادة و الألم شيء واحد في الجمال، تتساوي المتعة و نكران الذات من خلال الخير.

و يملاء الحب و فيضانه الفجوة التي بين العالم المحدود و العالم المطلق ، ففي كل لحظة يحمل الحب معه رسالة من العالم المطلق. و تنعكس الأشياء التي كان ليس لها أي شيء في شكل وردة، أو في شكل فاكهة، و يأخذنا العالم المطلق معه بين ذراعيه كأب و يسير بجانبنا كصديق. إنها فقط الروح، الواحدة في الإنسان التي – في الطبيعة – نتغلب بها علي كل الحدود، و نجد كل المصاهرة والألفة مع هذه الروح الواحدة المقدسة.

ليس هناك الآن انسجام داخلي، و إدراك لتلك الوحدة بسبب أن حياتنا مازالت تغمرها العادات. يظل العالم يظهر لنا مثل الأله التي نوجهها لنفعنا،و لحمايتنا مما هو خطر، و لا ندرك أبداً هذه الأله في مرافقتها لنا مع الوقت. و هذا أيضاً الجانب المادي للبيئة التي حول هذه الآلة و الجانب الروحي و الجمالي للحياة في هذه البيئة.

(Avidya) : تعني « الجهل» الذي يخلق مسافة بين الإنسان و بين الله. انه يسبب الم مبرح في الإنسان. لذلك فهذه الكلمة في الديانة الهندوسية تشير إلي أن كل شيء نراه زائف. فالمطلق (براهما) و الطبيعة شيء واحد و الكون المادي للإنسان ليسا إلا مظهر للمطلق.(Vishvakarma): تعني " نجار في كوخ": هو مهندس مقدس من عند الألهه مسئول عن بناء الكون وقصور الألهه الهندية و هو إله البناة في الهندوسية. فهو إظهار و انعكاس للقوة الإبداعية للذات المقدسة.(Rudra) : تعني « المهابة» أو « المدمرة» ، و هو أحد الألهه الهندوسية الرئيسية ، لذلك فهو إله القوة و القدرة.

3- مشكلة الشر

و عندما نتطرق للحديث عن الشر، فيجب أن نذكر أن السبب في وجود الشر هو نفسه السبب في وجود النقص (عدم الكمال) في الوجود ، أو من ناحية أخري، هو السبب في وجود كل الخلق. فالشر موجود لا محالة، و علينا التسليم بأن الخلق غير كامل، و ينمو بالتدريج، و لا جدوى حينما نسأل أنفسنا ، لماذا هذا النقص و لماذا خلقنا هكذا؟.

و لكن السؤال الذي علينا فعلاً أنه نطرحه هو: هل هذا النقص (عدم الكمال) مشكلة نهائية، و هل الشر مطلق و دائم؟ . فالنهر له ضفاف و له حدود، و لكن هل النهر كله عبارة عن ضفاف؟ و هل هذه الضفاف هي النهاية بالنسبة له؟ ، آلا تدفع هذه العوائق بالمياه للأمام؟. هذا القارب الذي يسير في النهر ، آلا يوجد مغزى لحبل السّحب الذي يقيده، ألم يدفع هذا القيد (السحب) بالقارب للأمام؟

فالعالم الحالي له حدود، و الألم يكن له في الأساس أي وجود، و لكن ليست العبرة في هذه الحدود التي تقيد العالم، و لكن في حركته التي تسير في اتجاه الكمال. العجب ليس حتمية وجود العوائق و المعاناة في العالم، و لكن في وجود القانون و النظام، و الجمال و السعادة، و الخير و الحب. يكمن أيضاً كل العجب في فكرة تجلي الإله داخل الإنسان. و يأتي ذلك نتيجة لإيمان الإله العميق بأن ما يظهر ما هو ناقص هو إظهار للكمال نفسه. فعلي سبيل المثال يسمع الإنسان بإذنيه الموسيقي ليدرك كمال الأغنية، و لكنه في الواقع يستمع إلي تعاقب و تسلسل العزف الموسيقي.هذا التناقض العظيم ، الذي اكتشفه الإنسان، هو أن قيده ليس أبداً ليسجنه داخله و لكن ليدفعه إلي الأمام و إلي التحرك و بذلك تتلاشي القيود في كل لحظة. لذا نجد أن النقص لا ينافي أبداً الكمال، فالمحدود يسير في اتجاه واحد مع اللامحدود، لأنه كمال يظهر في شكل أجزاء، و هكذا تظهر اللا محدودية في صورة حدود .

ليس الألم – شعورنا في العالم المحدود– هو شيء دائم في حياتنا. و ليس نهاية في حد ذاته ، و كذلك السعادة. و شعورنا بالألم ناتج من معرفتنا بأننا لسنا جزء من الحقيقية الدائمة للخلق. فالخطأ يكمن في أسلوب تفكيرنا، و عندما ننظر لتاريخ تطور العلم فإننا نري أنه عبارة عن متاهة من الأخطاء ، فمع عدد من المرات المختلفة تطورت هذه الأخطاء إلي أن وصلت للأوضاع الحالية. و لكن لا أحد يدرك بأن العلم ما هو الإ النتيجة الكاملة الواحدة للأخطاء العديدة. أهم شيء يستحق الذِكر في تاريخ العلم هو البحث والفحص الدائم للحقيقة، و ليست أبداً تلك الأخطاء التي لا حصر لها. و الخطأ ليس، وفقاً لطبيعته، أمر ثابت و لا يستمر أبداً مع الحقيقة. مثل الزانية التي يجب أن تخرج من منزلها بمجرد أن تسقط حتى يستمر الطريق إلي الكمال.

و بينما النقص هو جوهر التفكير الخاطئ – مثل أي نوع أخر للشر – إلا أنه لا ينسجم مع الوَحدة الكلية للأشياء. فكلية الأشياء تعمل بشكل دائم علي علاج الخطأ و تغير سمته. و نبالغ في أهمية الشر بتخيلنا له أنه شيء ثابت. هل نستطيع – من خلال الإحصائيات– أن نعرف الكم الهائل من جرائم الموت و الفساد الذي يحدث في كل لحظة علي وجه الأرض، إنه أمر في غاية الفزع. لذلك فالشر لا مفر منه فهو مستمر، و لكن بالرغم من هول المصائب الناتجة عن النشر– التي لا يمكن حصرها– إلا أنه لا يعرقل بشكل فِعلي من سريان حياتنا، مازلنا نري جمال و نقاء الأرض و الماء و الهواء المستمرين من أجل الكائنات الحية. و ما نقوم به من إحصائيات عبارة عن تحليل لمحاولتنا المستمرة. و أثناء هذه العملية ، فالأشياء التي لها وزن و ضخامة في عقولنا ليست كذلك في الحقيقة. و لهذا السبب يميل الإنسان– الذي في مهنته مهتم بجانب معين من جوانب الحياة – إلي تضخم هذه النسب، و مع التضخيم الغير ملائم للحقائق الواقعية ينفصل عن إدراك الحقيقة المعنوية. قد يتاح لرجل المباحث الفرصة في دراسة و تحليل الجرائم بالتفصيل من خلال نظام الاقتصاد الاجتماعي ، الإ أنه يفقد الإحساس بالأماكن التي حدثت بها الجرائم . و عندما يجمع العلم الحقائق لوضع تفسير للصراع المتواجد في مملكة الحياة، فسرعان ما تتكون في أذهننا صورة « الطبيعة ذات الأسنان و المخالب الدموية». و نتخيل أن الألوان و الأشكال لهذه الصور الذهنية دائمة و من الثوابت ، الإ إنها في الواقع تزول و تتلاشي. و كأننا نقوم بحساب وزن الهواء لكل بوصة مربعه من أجسامنا لإثبات أن هناك ثقل رهيب علينا. و بالرغم من هذا التضخيم، الإ أننا نتكيف مع هذا العبء و نتحمله. فمع وجود الصراع من أجل التواجد في الطبيعة يوجد أيضاً البديل و التعويض. فهناك الحب ، حبنا للأطفال و للرفقاء و التضحية بالنفس النابعة من الحب ، لذلك فالحب هو الجانب الإيجابي في الحياة.

و إذا قمنا بتحويل ضوء الإدراك و الملاحظة بداخلنا إلي حقيقة الموت، فالعالم سيبدو لنا علي أنه بيت أشباح به جثث الموتى، لكن فكرة الموت لدينا لها في عقولنا أدني تقدير. و ذلك ليس بسبب أنها الأقل ظهوراً، و لكن بسبب أنها الجانب السلبي في حياتنا. و أيضاً يتضح ذلك في حقيقة أنه بالرغم من إغلاق أجفاننا كل ثانية، إلا أن ما يُحسب فقط هو لحظات فتح الجفن و العين. فالحياة ككل ليس أن تأخذ الموت محمل الجدية و الخطورة. و لكن الحياة تضحك، و ترقص و تلعب و تبني و تختزن و تحب في مواجهة مع الموت.

و نري فقط هذا الظلام الدامس للموت و يصبنا الفزع بتضخيم تلك الحقيقة الفردية للموت .فالتضخيم يجعلنا لا نري صورة الحياة ككل (تلك الحياة التي الموت جزء منها). و التمعن فيه يجعله و كأنه قطعة من القماش تحت الميكروسكوب، فيظهر لنا علي إنه شبكة، فندقق النظر في الفتحات الكبيرة و نتحطم وسط الخيال. و لذلك فالموت ليس هو النهاية الدائمة. فالموت يبدو لنا اسود– مثلما تبدو السماء زرقاء، و لكن سواده لا يجعل الكون مثله اسود، مثل السماء لا تترك للونها أثر علي أجنحة الطير.

و حينما نري طفل يجاهد لكي يخطو بخطواته الأولي، فلنا أن نري كم عدد المرات التي نتعثر و نفشل فيها و المرات القليلة الناجحة هي فقط المرات التي تستمر. فإذا كان علينا أن نكبح إدراكنا و ملاحظتنا داخل نطاق ضيق من الوقت، فالرؤية عندئذ ً ستصبح علينا قاسية. لنا أن نري أنه بالرغم من محاولات الفشل المتكررة فهناك حافز المتعة الذي يدفع بالطفل أثناء مهمته التي تبدو ، ظاهرياً، أنها مستحيلة. و نلاحظ أنه لا يفكر في سقوطه و فشله مثل تفكيره في القوة التي يحاول الحفاظ عليها من أجل التوازن و لو للحظة.

فمثل تلك الحوادث في محاولات الطفل للمشي، نري نحن أيضا ً تلك المعاناة يومياً – بمختلف أشكالها– و التي تتمثل في نقص المعرفة و القوة التي لدينا ، و عدم الكمال أيضاً في استخدام إرادتنا. و لكن إذا كان الهدف من ذلك هو كشف ضعفنا فقط ، فإننا نموت بسبب الاكتئاب الذي تسببه لنا تلك المصائب . و باختيارنا منطقه محدودة من النشاطات، فإن فشلنا و تعاستنا تتضخم بشكل رهيب في عقولنا. و لكن تقودنا الحياة بشكل مستمر للنظر نظرة أوسع و أشمل، فتعطي لنا صورة مثالية للكمال الذي يدفعنا للمضي نحوه من خلال الحدود الحالية التي تقيدنا. فلدينا الأمل الذي يعبر من خلال التجربة المحدودة الحالية إلي الأمام ، إنه الإيمان الدائم للوصول إلي العالم اللا نهائي الموجود داخلنا ، ذلك الإيمان الذي لا يُسلم بثبات و دوام المعوقات. فمن خلال هذا الإيمان تتلاشي كل القيود من رؤيتنا، فصبح علي يقين بأن الإنسان في وَاحده مع الإله و أحلامه الجامحة تتحقق كل يوم.

ندرك الحقيقة حينما فقط نوجه عقولنا نحو العالم المطلق. لا يكمن الهدف الاقصي للحقيقة المطلقة في الحاضر الضيق و لا في أحاسيسنا الحالية، و لكن في إدراكنا للكل الذي يجعلنا نتذوق ما يجب علينا أن نملكه من خلال ما نفعله. و سواء بوعي أو دون وعي، فلدينا في حياتنا هذا الشعور بالحقيقة المعنوية الواحدة التي هي أعظم و أكبر مما تبدو علية، فنصل لتلك الحقيقة فقط في العالم المطلق. و بذلك يكون إدراك الحقيقة هو الأهم ، فمع الاستمرار، نجد إدراك الإنسان للحقيقة لا يدعه يقف عند صحراء العالم المحدود، و لكن يأخذه لمنطقة أبعد. لا يستطيع الشر أبداً أن يسرق اتجاه الحياة و يسلب منها ما لديها. فيجب للشر أن يمر و يتطور وصولاً للخير، فلا يمكن له أن يقف و يفوز علي الكل. فإذا كان لأدني أشكال الشر أن تقف لنا بالمرصاد في مكانٍ ما ، فأجلا ً أم عاجلا ً ستنهار أعماقه و تنقطع جذوره. و علي الرغم من وجود الشر، فالإنسان أساساً لا يعتقد في الشر –تماما ً مثلما لا يعتقد في أن أوتار الكمان مخصصة للقيام بتشويه العلامات الموسيقية المتعارضة.و من الممكن أن تثبت لنا الإحصائيات رياضياً أن احتمالية الخلاف قد تكون أفضل بكثير من الانسجام. و في الوقت الذي يستطيع فيه شخص واحد أن يعزف علي الكمان لا يستطيع آخرين.

(تكملة) ويفوق الكمال التناقضات الحالية. و مما لا شك فيه أن هناك أشخاص تؤكد أن الوجود ما هو إلا شر مطلق، و ذلك ليس حقيقي لأنه تضخيم لحقيقة الشر. فالتشاؤم لديهم ليس إلا مجرد حالة، سواء عقلية أم عاطفية. لكن طبيعة الحياة نفسها متفائلة، و تسير نحو الاستمرار. فالتشاؤم نوع من

التعطش العقلي، لأنه يبتعد عن التغذية العقلية الصحية، و ينغمس في شراب الاتهام فيخلق لنفسه نوع من الوهن السطحي الذي به يتعطش أكثر و يحتاج أكثر للشراب. فإذا كان العالم ما هو الإ شر، فلا نحتاج لفيلسوف كي يثبته. فذلك مثل إثبات التهمه علي الشخص المنتحر، بينما هو طوال الوقت يرقد أمامك مكسو باللحم. فالوجود يثبت لنا العكس و هو أن ليس أبداً شر.

فالنقص ليس بشكل مطلق نقص، و لكن يبقي الكمال هو الغاية المثلي منه، الذي يجب أن نصل إليه مع الإدراك الدائم. و هكذا، فإنها وظيفة عقولنا في إدراك الحقيقة من خلال الزيف، فالمعرفة لا شيء غير الإستناره و التصحيح المستمر للخطأ ، تظهر هذه الإستناره بانطلاق ضوء الحقيقة. فيجب علينا – من خلال رغباتنا و شخصيتنا– أن نحصل علي الكمال من خلال التغلب المتواصل علي الشر، سواء الشر الداخلي أو الخارجي، أو كليهما معاً. فبالنسبة لحياتنا المادية، علينا أن نستهلك المواد التي تشبعنا جسدنا في كل لحظة من أجل الحصول علي الوقود اللازم لها، و لكن حياتنا المعنوية أيضاً لها وقود يحترق. هذه العملية مستمرة—و نحن نعلمها، و نشعر بها، و لدينا إيمان عميق بأن الرغبات الفردية لا يمكنها أبداً أن تغير اتجاه الانسانيه الذي يسير من الشر إلي الخير. و يبقي دائماً شعورنا بالخير هو الجانب الإيجابي في طبيعة الإنسان، و في كل زمان . فأكثر ما يقدر به الإنسان هي تلك القيم التي تهدف إلي الخير. فنحن نعرف الخير، و نحبه، و نشعر بالاحترام تجاه الأشخاص الذي يكون الخير أساسي في حياتهم.

و السؤال هو، ما هو الخير، و ماذا تعني طبيعتنا المعنوية؟، و الإجابة هي، يظهر الخير حينما يبدأ الإنسان في أن يكون له رؤية ممتدة لنفسه، و عندما يزداد وعي عما هو لدية في الوقت الحالي، عندئذ سرعان ما يبدأ في فهم حياته المعنوية. فيزداد وعياً بنفسه ، و هذه الحالة من الوعي التي لا يزال لم يعيش فيها هي الأكثر حقيقة عن تلك الحالة التي كان يعيش فيها من خلال تجربته المباشرة الحالية. و بكل تأكيد، فإن منظورة للحياة يصبح مختلف، و تحل إرادته محل رغباته.

فالإرادة هي الرغبة المقدسة للحياة الأوسع، و عندما تكون الحياة الأعمق و الأعظم بعيده عنا، فإن كل شيء خاص بتلك الحياة يصبح بعيد عن رؤيتنا. و من ثمّ ينشأ النزاع بين الإنسان الأدنى و الإنسان الأعظم ، و الصراع بين الإرادة و بين رغباتنا تجاه الأشياء التي نشتهيها و نتخيل أنها لسعادة القلب .فعلينا أن نفرق بين ما نرغب به فعلاً و بين ما هو خير. بالنسبة للخير، فهو ما نرغب فيه من أجل الوصول للحياة الأعظم. أي أن الشعور بالخير هو نتيجة لنظرتنا الأعمق و الأصدق للحياة ، تلك هي النظرة المرتبطة برؤية الحياة ككل ، و تلك النظرة تأخذ في الاعتبار الحاضر و الغير حاضر ، و هذا الغير حاضر قد لا يكون موجود من وجهه النظر البشرية. الإنسان، ذو البصيرة، يشعر بأن حياته التي لم تأتي حتى الآن، أفضل من تلك الحياة التي يعيشها، و لذلك، فهو علي استعداد أن يضحي بنزعته تجاه الحاضر من أجل المستقبل المجهول. و من أجل ذلك يجتهد ليدرك الحقيقة. و حتي مع وجود الأنانية فيجب علي الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة، و أن يلجم رغباته الحالية— أي أن يترك الأنانية و يتحلي

بأخلاق الحميدة. تلك هي القدرة العقلية التي بها نعرف أن الحياة ليست عبارة عن أجزاء منفصلة، و ليست بلا هدف. و ليس لهذه الأخلاق أن تمد الإنسان فقط بالقوة في رؤية تطور و استمرارية حياته، و لكن أيضاً تمكنه من رؤية أنه ليس علي حق حينما تقيده نفسه. فيكون علي وعي أكثر بالحقيقة المعنوية أكثر من الحقائق المادية. فالإنسان فعلاً ينتمي لأشخاص آخرين غير شخصه،و قد لا يتقابل معهم علي مدار حياته و مثلما يكون لدي الإنسان شعور بنفسه المستقبلية التي هي خارج نطاق وعيه الحالي، فهو أيضاً لدية شعور بالنفس الأعظم التي هي خارج حدود شخصيته الحالية. و لا يوجد إنسان ليس لدية نسبة من هذا الشعور، أو الشعور بالتضحية من أجل شخص أخر أو الشعور بالسعادة في المعاناة التي يتكبدها من أجل إسعاد شخص أخر. فهذا الإنسان لا يعيش أبداً في عزلة ،فهو لدية سمة كونية عالمية و يصل للعظمة عن حق حينما يدرك ذلك. حتي أكثر الأنانيين شراً و إثماً علي دراية بهذه الحقيقة لكي يتمكنوا من استخدام قوة الشر، فلا يمكنهم أن يصلوا لتلك القوة عند تجاهل الحقيقة. و في سبيل المطالبة بهذه الحقيقة ، فيجب علي الأناني أن يتخلي عن قدر من أنانيته. و كذلك العصابة (مجموعة اللصوص) تتحلي بشيء من الأخلاق لكي تتكون هذه العصابة، فقد تسرق هذه العصابة العالم كله و لكن لا تطبق السرقة فيما بينهم. و في سبيل النجاح في تحقيق هدف غير أخلاقي، فيجب أن تتسم بعض الأسلحة بالأخلاق. و في الواقع، فالقوة التي تتسم بغاية النبل و الأخلاق قد تكون سبيلاً لتحقيق الشر و استغلال الآخرين لتحقيق المنافع الشخصية و سرقة حقوق الآخرين.

فحياه الحيوان لا تتسم بالأخلاق، حيث أنه لا يدرك إلا اللحظة الراهنة، إلا أن حياه الإنسان قد تكون غير أخلاقية و لكنها في نفس الوقت تتبع نهج أخلاقي. لذلك فما هو غير أخلاقي هو في الأصل جزء أخلاقي و لكنه غير مكتمل. فما هو زيف يكون إلي حد معين، حقيقي أو إلا فلا يعتبر زيف علي الإطلاق. و ليس معني أنك لا تري فإنك أعمي ، و لكنك حينما تري بشكل خاطئ فإنك تري فقط بشكل غير كامل. فأنانيه الإنسان هي شيء أولي تجاه رؤية شيء متصل و ذو مغزى في الحياة. لأن الأناني يسير وفق المبادئ الأخلاقية، ويعمل علي كبح جماح نفسه و التحلي بحسن الخلق من أجل تحقيق منفعة شخصية. و هذا الإنسان الأناني علي استعداد أن يتكبد الصعوبات و يغوص في المشاكل من أجل نفسه، فهو يعاني المشقة و الحرمان بدون أي همهمة، فهو يعرف أن ما يعانيه من ألم الآن هو علي العكس تماماً عندما ينظر إليه من خلال منظور أوسع. لذلك فخسارة الإنسان الأقل شأناً هي مكسب للأعلى شأناً – و العكس صحيح.

و الإنسان الذي يحيا من أجل فكرة أو من أجل بلده أو من أجل خير الإنسانية، فالحياة يكون لها معني، و عند ذلك يكون الألم بالنسبة له أقل أهمية في سبيل تحقيق ما يرجوه. و إنك تحيا حياه الخير أي إنك تحيا حياه الكل. فالمتعة و النشوي هي من أجل شخص و لكن الخير هو تحقيق السعادة الدائمة لكل البشرية. و من منظور الخير، نستطيع أن نري السعادة و الألم بشكل مختلف، فإلي أبعد مدي، نتجنب المتع الشخصية، و يصبح للألم منظورة الخاص ، حتى الموت نفسه نرحب به حينما يكون في

سبيل إعلاء قيمة في الحياة. و في ضوء هذه القيم العليا – قيم الخير– تتلاشي الرغبة الذاتية و يتلاشي الألم. و أثبت الشهداء ذلك علي مر التاريخ، و نحن أيضاً ما نقوم به يومياً و ما نراه من معاناة أشبه بالعمليات الإستشهاديه. حينما نأخذ من ماء البحر ما يملاء وعاء فكم يكون علينا ثقيل، و لكن حينما نغطس في البحر نفسه فلنا أن نتخيل كمية المياه التي تعلو فوق رؤوسنا و لا نعاني منها أي ثِقل . فعلينا أن نحمل وعاء النفس بكل ما لدينا من قوة، و عند النزول في البحر لعمق الأنانية يكون الألم و المتعة الشخصية أثقل ما يمكن و لكن بالغوص إلي مستوي أعمق (مستوي الأخلاق) فنشعر بأخف حمل يمكن أن يكون. فهذا الإنسان الخيّر نراه لديه قدرة غير طبيعية علي الصبر تمكنه من أن يقف أمام قافلة ساحقة و يواجه الظلم و المعاناة.

و لذلك لكي يعيش الإنسان في حياه يملؤها الخير الكامل، فعلية إدراك الحياة فتلك هي النظرة الشاملة للحياة التي يمكن له أن نحصل عليها من خلال قوة الرؤية الأخلاقية للحياة ككل الموجودة بداخله. و تنص تعاليم البوذية علي الارتقاء بهذه القوة الأخلاقية إلي أبعد مدي، و من أجل الوصول إلي ذلك فلا يجب أن تكون نشاطات الحياة التي نمارسها مقيدة النفس و تحد من مستوي الأفق و الإدراك .

تلك هي الرؤية المقدسة للمسيح . فمع الدخول إلي تلك الحياة الكونية الشاملة، أي الحياة الأخلاقية، فإننا بذلك ننزع قيود المتعة و الألم و نشعر بسعادة لا تُوصف. في هذه الحالة فقط يزداد عمق و نشاط الروح، و تكون القوة المحركة لها ليست الرغبات، و لكن تلك السعادة التي تشعر بها في ذلك الوقت. هذا هو – كرما يوجا Karma Yoga– Gita – الطريق لكي تصبح واحد ضمن العالم المطلق من خلال ممارسة نشاط الخير المطلق.

فعندما يشير بوذا إلي تلك الطريقة في إدراك البشرية من خلال إدراك وفهم المعاناة، فيأتي إلي الحقيقة التالية: حينما يصل الإنسان إلي النهاية العظمي من خلال دمج فرديته مع الكون، يكون قد تحرر من عبودية الألم. دعنا نري ذلك باستفاضة أكبر.

في احدي المرات روي لي أحد طلابي مغامرته أثناء هبوب عاصفة و اشتكي من معاملة الطبيعة له في وسط كل هذا الهياج ،فكانت تتعامل معه كأنه حفنه من التراب. فهذا الشخص الذي كان يميزه الإرادة و التحكم في الأشياء لا يكون له أدني سيطرة علي ما يحدث.

فقلت له، « أن تخيل الإنسان أن بفرديته يسيطر علي الطبيعة، فستزداد معاناته «.

لكنه أصر علي شكه، و قال لا يمكن أبداً تجاهل حقيقة الشعور بوجودي و كياني . فتلك « الأنا» التي بداخلنا هي التي ترغب في وجود علاقة تشعر فيها بفرديتها.

فأجابته وقلت له أن علاقة « الأنا» تتعلق « بعدم الأنا». لذلك علينا أن نجد أرض مشتركه بين الاثنين، ففي ذلك الوقت ندرك فعلاً حقيقة العلاقة بين « الأنا» و « عدم الأنا».

ونكرر انه يجب علينا أن نضع في أذهاننا أن طبيعة فرديتنا ترغب في الوصول إلي العالم الكلي . و تموت أجسادنا حينما تحاول أن تلتهم مالديها، و أيضاً تفقد أعيننا وظيفتها إذ فقط نظرت إلي نفسها.

تزداد فرديتنا قوة – مع اندماج الخيال القوي مع الحقيقة – و تكون في سبيلها للاقتراب أكثر من الحقيقة الشاملة. فعظمة الشخصية ليست في نفسها و لكن في محتواها، أي المحتوي الكلي الشامل. مثل عمق البحيرة الذي لا يقدر بمقدار جوفها و لكن يقدر بعمق الماء فيها.

لذلك، فإذا كان الأمر هو اشتياقنا إلي طبيعتنا هو فقط من اجل الواقع الحالي، و إذا لم يشعر الفرد منا بالسعادة بسبب هذا الوجود الرائع، فسنتعامل فقط مع الأشياء من خلال إتباع قانون تلك الأشياء، و لكن ليس من خلال هذا المسلك نستطيع أن نحقق السعادة . و لكن أحياناً قد يؤدي هذا التعنت و التشبث بالواقع بنا إلي كارثة، فقط مثل ما تؤلم دوماً الأرض الطفل الصغير الذي يقع عليها حينما يخطو أول خطواته في الحياة. ذلك الثبات – الذي يسبب له الألم– يجعله يتمكن من المشي و السير.

كنت أمر ذات مرة تحت أحد الجسور، و صارية القارب مثبته علي أحد العوارض الخشبية به. و فكرت أنه إذا مال هذا الصارية للحظة واحده بمقدار واحد بوصة أو اثنين، أو أن الجسر كان مثل شكل القطة حينما تتثاءب، أو أن النهر استسلم للموقف، فسأكون أنا الأضعف ، و لكن تلك الأشياء ليس لديها معرفة مسبقة بضعفك. هذا هو السبب وراء كيفية التبحر و الغوص في النهر من خلال مساعده الصارية، و ذلك هو السبب في اعتمادي علي الكوبري حينما كان اتجاه التيار غير ملائم. تظل الأشياء كما هي، و لكن يجب علينا أن نعرف تلك الأشياء إذا كنا نتعامل معها، و هذه المعرفة ممكنه و قانون هذه الأشياء لا يسير وفق رغباتنا تلك المعرفة هي السعادة بالنسبة لنا، لأن المعرفة هي واحده من قنوات اتصالنا مع العالم الخارجي، فتجعل هذا العالم ملكُ لنا و تقلل من حواجز و قيود النفس.

و علينا في كل خطوة الاعتداد بالآخرين أكثر من أنفسنا. نحن لا نعيش في هذا العالم بمفردنا ، فقط في الموت نكن فرادي. فالشاعر هو شاعر علي حق حينما – بشعرة– يصل فكرته الشخصية للآخرين و يسعدهم بها، فهو لا يتثني له ذلك إذ لم يكن هناك وسيلة و أرض مشتركة بينه و بين جمهوره. فتلك الصلة هي اللغة التي لها قوانينها الخاصة التي يجب علي الشاعر أن يكتشفها و يسير عليها بأن يكون إنسان حقيقي و يحقق الخلود لشعرة.

فنري إذن أن فردية الإنسان ليست هي غايته الكبرى، و تبقي الحقيقة الشاملة هي غايته. و إذا كان الإنسان يعيش في عالم تظل فيه نفسه هي العامل الوحيد الذي يستحوذ علي اهتمامه، فهذا هو أسوأ سجن يمكن أن يُسجن داخلة. لأنه فقط يعثر الإنسان علي أعمق شعور للسعادة و البهجة في الاندماج أكثر و أكثر و في الوَحدة و الامتزاج مع الكل. و هكذا لا يمكن أبداً تحقيق ذلك إذ لم يكن هناك قانون مشترك بين الجميع. و يأتي ذلك باكتشافنا القانون و السير عليه. هل يمكن أن نكون عظماء و هل نستطيع أن

ندرك الحقيقة الشاملة إذا كانت رغباتنا الشخصية في صراع مع القانون الشامل الكلي؟، الإجابة هي مزيد من التكبد و الألم مع دنّو أنفسنا.

كنا في الماضي نتضرع أثناء الصلوات من أجل الحصول علي امتيازات معينة، و نتوقع أن قوانين الطبيعة يجب أن تتوقف تلبية ًلمصلحتنا وراحتنا الشخصية. ومع الوصول بالإدراك لمرحلة أفضل، فنصبح أقدر بمعرفة أن القانون لا يمكن أن يتوقف، وبهذه المعرفة تكمن قوتنا.

و هذا القانون ليس جزء منفصل عنا. تتحد و تندمج القوة الكلية الشاملة التي تظهر في القانون الشامل مع قواتنا نحن البشر. يعارضنا هذا القانون فقط إذا كنا أفراد عادية تافهة و لكنه يقف معنا جنباً إلي جنب حينما نسعى للوصول إلي العظمة و الإدراك، أي أن نكون في تناغم و انسجام مع الكل. و هكذا، فمن خلال معرفة قوانين الطبيعة يمكن أن نملك القوة و نصل إلي الجسد الكلي.

و علية يعمل عضو البصر و الحركة و القوة البدنية ضمن القوي الكونية الشاملة، و يصبح البخار و الكهرباء بمثابة الأعصاب والعضلات في الجسم. فمن خلال هذا النظام الجسدي الشامل للوجود نكتشف هذا المبدأ الأساسي من العلاقة . وتلك العلاقة هي علاقة الجسد الكلي للجميع، لذلك فمن خلال الكون الشامل نري هذا المبدأ من العلاقة المستمرة ، أي الجسد الشامل ، ثم نسير بعد ذلك وفق هذه العلاقة. و في هذا العصر، عصر العلم، تنصب جهودنا حول الوصول لإدراك النفس الكلية و نعلم أن كل ما نعانيه من فقر و الآلام يكون بسبب عدم قدرتنا علي إدراكنا لهذا المطلب الشرعي للنفس . و في الواقع لا يوجد حد لقوانا فنحن لسنا خارج تلك القوة الكلية التي هي انعكاس للقانون الكلي الشامل. فنحن في طريقنا للتغلب به علي المرض و الموت، و نقهر الألم و الفقر، و بالمعرفة العلمية نخطو دائماً نحو إدراك أفضل للجسد الكوني الشامل من خلال العالم المادي. و مع المضي قُدما في هذا الطريق ، نجد أن الألم و المرض و الفقر ليست لهم القوي و السلطة المطلقة، و لكنه فقط الرغبة في تكييف ذاتنا الداخلية مع ذاتنا الشاملة الكلية التي تتسبب في حدوثهم.

فنفس الشيء يكون في حياتنا الروحية. فعند الغضب و السير عكس القانون الكلي الشامل، فتتكون لنا شخصيات خاوية و غير أخلاقيه و تلاقينا دائماً المعاناة. ففي تلك الحالة، و بذلك لا نلاقي إلا إخفاقاتنا الكبرى، و السعي إلي إشباع رغباتنا يجعلنا أشد فقراً. فنحن نلهث وراء بعض المكاسب الشخصية، و نريد أن نغنم وحدنا ببعض الامتيازات التي لم يشاركنا فيها أحد. و لكن كل شيء خاص فهو ، بكل تأكيد، تشبث بصراع دائم مع ما هو عام.

و في حاله الحرب الأهلية فدائما ً ما نعيش خلف الأسوار و الحواجز و المتاريس، و في أي حضارة يكن ورائها مساعي أنانية، تكن النتيجة هي الشعور بالغربة في منازلنا و أوطاننا و تظل حولنا القيود السطحية. ثم نأتي و نشكو بأننا لسنا سعداء، و كأن هناك شيء متأصل في طبيعة الأشياء يجعلنا تعساء. إلا أن الروح الشاملة دائما ً في انتظارنا لتتوجنا بتاج السعادة، و لكن روحنا الفردية هي التي

تتسبب في الصراعات و العراقيل في كل مكان، فتعاكس التوازن الطبيعي للمجتمع و تخلق التعاسة لكل البشرية. فيكون هذا هو الطريق المعاكس، يُخيل لنا إننا به نحاول الحفاظ علي النظام فنخلق لأنفسنا القهر السطحي و أشكال منظمة للطغيان ، و تُقهر الإنسانية نفسها في كل لحظة علي يد المؤسسات القاسية في عالمنا.

ومما سبق لنا أن نري كيف يمكن أن نكسب القوة حينما نخضع لقوانين القوي الشاملة، و أن ندرك–من خلال الممارسة– أن تلك القوي هي قوانا. لذلك، فلكي نشعر بالسعادة، لذا علينا أن إخضاع رغباتنا الفردية للإرادة الكلية الشاملة. و عند وصولنا إلي تلك الحالة من الانسجام الكامل بين العالم المحدود داخلنا مع العالم المطلق ، عندئذ يكون الألم مصدر قوة كبيرة لدينا. ويصبح هو بمثابة عصا القياس التي تقيس القيمة الحقيقية لسعادتنا.

أكثر الدروس أهمية يمكن للإنسان أن يتعلمه في حياته ليس في وجود الألم ، و لكن يتوقف ذلك عليه حينما يسعي لتحويله إلي قيمة جيدة و استثماره الاستثمار الأمثل، و ليس مستحيل علي الإنسان أن يحوله إلي متعه و سعادة.

و نحن لا نفقد هذا الدرس كليةً، فلا يوجد إنسان يحيا و يرغب في أن يُجرد من حقه و يعاني الألم، و لذلك فهذا هو حقه لأن يصبح إنسان .

ذات مرة اشتكت لي زوجة رجل فقير معبرة عما بها من مرارة بسبب ذهاب ابنها إلي منزل أحد الأغنياء من أقاربهم لفترة من العام. و كنت أسعي للتخفيف عنها معانتها التي سببت لها صدمة، و معانتها كأم ناتجة بسبب حقها الدائم في الحب، حيث أنها لم تتنازل عن هذا الحب تحت أي ظرف من الظروف.

و حرية الإنسان ليست في أن تختزن له المتاعب ، ولكن لكي تجعل من المتاعب ما هو جيد له، و بذلك تكون المتاعب احدي عوامل سعادته.

و في الوقت الذي ندرك فيه أن النفس الفردية ليست هي أقصي معني نصبو له كبشر، ينظر الإنسان الكلي الخالد بداخلنا – الذي لا يخاف من الموت أو المعاناة– للألم علي إنه الجانب الأخر للمتعة. و من يدرك ذلك يعلم جيداً أن المعاناة هي ثروتنا الحقيقية ككائنات غير كاملة، و من خلاله نصبح عظماء و نستحق الحصول علي مكاننا في العالم الكامل.

يعلم الإله إننا لسنا متسولين، و تلك هي العملة الصعبة التي يجب علينا أن ندفعها كثمن لكل شيء قيم في الحياة، من أجل القوة و من أجل المعرفة و من أجل الحب. ففي الألم تنعكس الإمكانية المطلقة للكمال و تنبع السعادة الداخلية، و الإنسان الذي يفقد كل المتع من أجل قبول الألم فكأنه يغوص أكثر و أكثر في أعماق الفقر و الذل و الهوان. و حينما نستخدم الألم فقط من أجل المتعة الذاتية فالنفس تصبح

شريرة و تنتقم بسبب اهانة حدثت لها من خلال إلقاء الغوص في المأساة و المعاناة. و نري النفس النقية في السيدة العذراء حينما كرست نفسها لخدمة الكمال الخالد، و عندما أخذت وضعها الحقيقي أمام كاهن الكنيسة في العالم المطلق، فقامت بنزع الحجاب المظلم من وجهها أمام الحضور لتكشف عن السعادة و المتعة المقدسة.

***

(المعاني الواردة في الترجمة أعلي باللون الأحمر وفقاً لمدلولها في الديانة الهندوسية)

* كرما يوجا

Karma Yoga : هو أحد الطرق للوصول إلى الله وهو الطريق الذي يكون عبر العمل، وفق التقليد الهندوسي إن هذا الطريق مخصص للأشخاص ذوي الميول للنشاط والعمل

للوصول إلى الله ، إنها النفس المنغمسة في العمل.

* (جيتا/ أو كيتا Gita): بَجَافاد جِيْتا اسم لأحد الكتب المقدسة في الديانة الهندوسية، ويعني عندهمأغنية الرب، وقد يُطلق عليه اسم جيتا (الأغنية) فقط. وقد كُتب الجيتابااللغة السنسكريتية

4 - مشكلة النفس

للنفس جانبين، ففي الجانب الأول فإنا (الإنسان) واحد مع الكيان الكلي . لذا يجب عليّ أن اعترف بالقانون الشامل، لأن فيه يكمن وجودي بكل عمق. فقوه هذا القانون تنبثق من كليةً الأشياء و من التكامل بين الأشياء وبين العالم الكلي. و لكن علي الجانب الأخر من كياني ، فإنا منفصل عن الكل. فحينما اخترقت نطاق المساواة و أصبحت أمكث وحدي منفرداً. فأنا بلا شك فريد، و لا تضاهيني أي فردية أخري. و لا يستطيع العالم بكل قوته أن يسحق تلك الفردية. فمازالت موجود برغم الجاذبية الهائلة للأشياء. تبدو تلك الفردية – علي المستوي الظاهري- ضئيلة و لكنها في الحقيقة هي شيء عظيم. و لحماية كياني المتفرد من كل القوي، فعلي أن انتزعه من هذا التمييز و أن أخالطه بالتراب.

تلك هي البنية الفوقية للنفس التي تأتي من العمق و الظلام الدامس و تبدأ في وضع أساسها فتعلو. و هنا تفتخر النفس بالانعزال من جراء تبلور فكرة فردية واحدة لمهندس معماري فريد في العالم كله. فإذا تم تدمير تلك الفردية، فستذهب تلك السعادة الخلاقة التي كانت قد تكونت. و بلا شك لنا أن نعاني من الإفلاس، إذا انتزعنا أنفسنا من هذا التميز و هذا التفرد، لأن ببساطه فرديتنا هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن نقول أنه ملك لنا، و إذا فقدناه سنفقد العالم بإكماله. و في الغالب فإن تلك الفردية ذات قيمة بالغة لأنها ليست شيء عام. و بذلك فمن خلالها فقط نستطيع أن نفوز فعلاً بالعالم أكثر من بقائنا متقوقعين داخلها لا نعرف و لا ندرك هذا التميز. فالكل دائماً ما يبحث عن ما ينقصه في التميز. بمعني أخر أن تلك الرغبة التي لدينا هي لكي نحافظ بها علي فرديتنا و نحميها ، و هذه الرغبة هي في الأصل رغبة العالم الكلي التي تعمل داخلنا. فهي سعادة العالم المطلق بداخلنا الذي يمدنا بالسعادة.

يَعتبر الإنسان أن هذا التميز و التفرد هو أعظم ما يمتلكه مبرهناً علي ذلك بما يواجهه من معاناة وما يرتكبه من آثام في سبيل تحقيق ذلك. و لكن إدراك هذا التميز جاء نتيجة طبيعية لتناول ثمار المعرفة. و من أجل هذا التفرد ، انِقاد الإنسان إلي الخزي و الجريمة و الموت، لأن هذا التفرد عنده أغلي عنده أغلي من أي جنة يمكن أن تكون فيها النفس، حيث السبات التام للنقاء الكامل في رحم الطبيعة الأم.

نكافح و نعاني بشكل مستمر لحماية هذا الانفراد و التميز. و لكن إذا نظرنا للواقع نري أن تلك المعاناة هي التي تقيس قيمة هذا التميز. التضحية هي أحد جوانب هذه القيمة، فتكشف لنا ثمن هذه المعاناة. و الجانب الأخر للقيمة هو البلوغ، أي المكسب من وراء هذا التميز. إذا كانت النفس لا تعني لنا شيء أخر غير التضحية و الألم، إذن لا يكون لها أي قيمة، و لا يكون لدينا أي استعداد للتضحية

تحت أي ظرف. لأنه في هذه الحالة ،بلا شك، يكون الهدف هو تعذيب النفس. فحينما يكون هناك مكسب موازٍ، أي حينما لا تفضي تلك المكابدة إلي اللا شيء، عندئذ نعرف أن الجانب السلبي – المعاناة و التضحية– يجعلنا نري قيمة و أهمية ما نتكبده . و قد برهن علي هذه الحقيقة الشخص الذي أستطاع أن يدرك الجانب الإيجابي للنفس البشرية فيُقبل علي الأعباء بحماس و شغف مع التضحية بدون أي خوف.

فمع المقدمة السابقة يصبح من السهل علينا الإجابة علي سؤال أحد من كان يستمع إلي حينما قال أليس الغاية العظمي للإنسانية في الهند هي إبادة النفس؟ . علينا أولاً أن نضع في أذهاننا حقيقة هامة و هي أن الإنسان ، في الحياة البدائية القديمة، لم يكن يلتزم بالتعبير عن أفكاره إلا نادراً. ففي الغالب أن كلماته لم تشكل أي لغة علي الإطلاق، و لكنها كانت عبارة عن بعض الأصوات و الإشارات اللفظية صادرة من شخص أبكم. قد تعكس هذه الأصوات دلالات معينة و لكنها لا تعكس أو تعبر عن أفكاره. فكلما كانت أفكاره أكثر إلحاحاً كلما كان يسعي لخلق كلمات لها تفسير أوضح ضمن سياق حياته. ومن يستعين بالمعجم لتفسير كلماته، فمثله مثل من يريد أن يصل إلي المنزل بشكل ألي فيصطدم بالحائط الخارجي و لا يجد أي مدخل يعبر بة من هذا الحائط. هذا هو السبب في وجود الكثير من المناقشات و الجدل حول تعاليم الأنبياء العظماء حينما حاولنا استيعاب ما يقولونه من خلال الكلمات وحدها و ليس بفهم و إدراك حياتهم. فهؤلاء من لعُنوا بالعقل العبقري المنعزل لا يكون الحظ حليفاً لهم لأنهم كمثل من ينشغل بشباك الصيد و يهمل الصيد نفسه. ليس ذلك فقط في الديانة البوذية و الديانات الهندية، و لكن أيضاً في المسيحية، إنه هو مبدأ التضحية و عدم الأنانية الذي يُدرس بكل حماس. ففيما سبق رمز الموت هو التعبير عن فكرة نجاه الإنسان من الحياة المزيفة، مثل نيرفانا Nirvnana، رمز انطفاء المصباح.

ففي الفكر الهندي النموذجي ، نجاه الإنسان الحقيقية هي النجاة من الـــــ avidya (أي الجهل). و ذلك ليس بتدمير ما هو ايجابي و حقيقي و لكن ما هو سلبي ويعيق رؤيتنا للحقيقة. فعند التخلص من هذه الإعاقة – أي الجهل– فلا يبقي ما يُرثي له حينما تغمَض العين.

إنه الجهل الذي يجعلنا نفكر أن العيش لأنفسنا هو المعني الكامل لها. حينما ينشأ لدينا هذا التصور الخاطئ فإننا بهذا الشكل نعيش بالأسلوب الذي يجعل نفسنا هي الهدف الاسمي لحياتنا. و من ثمّ تصيبنا خيبة الأمل و كأننا مثل من يريد أن يصل لمكانٍ ما عن طريق التشبث بحطام و غبار الطريق. فالنفس ليست لها طريقة في امتلاكنا، فطبيعتها هي أن تتركنا. لذلك فحينما نتمسك و نتعلق بخيط النفس الذي يمر عبر نول الحياة ،لا نحقق أبداً الغرض من النسج. عندما يسعي الإنسان بكل الطرق لمتعة نفسه ، فهو يشعل النيران و لا لكن ليس لديه العجين ليصنع منه الخبز، فالنار تتوهج و تلتهم نفسها حتى الانطفاء، مثلها مثل الحيوان الوحشي الذي يلتهم أولادة ثم يموت.

تظهر الكلمات –في أي لغة مجهولة– بشكل أشبه بالاستبداد. فتلك الكلمات موجودة و لكنها لا تعني شيء. و لإنقاذ أنفسنا من قيد هذه الكلمات فعلينا أن نحرر أنفسنا من avidya (الجهل)، و بذلك يجد عقلنا حريته في الفكرة الداخلية. و من الحماقة حينما نقول زوال هذا الجهل – جهل اللغة– يمكن أن يزول بتبدد الكلمات. لا ليس الأمر كذلك. فعندما نصل للمعرفة الكاملة، فكل كلمة تأخذ وضعها و لا نرتبط حرفياً بالكلمات نفسها، و لكن نمر من خلالها لنصل للفكرة ، أي نصل للتحرر.

و هكذا تكون قيود الجهل هي فقط القيود التي تجعلنا نعتقد أن الغاية في النفس ذاتها، و تمنعنا من رؤية الفكرة التي تتجاوز حدود النفس. و لهذا يقول الحكيم، « حرر نفسك من الجهل، و اعرف روحك الحقيقية لكي تنقذ ذاتك من التعلق الذي يجعلك فيها سجين». وهكذا ننعم بالحرية عندما نصل إلي أصدق طبيعة . فالفنان يجد حريته الفنية حينما يري الهدف الأقصى للفن. و من ثم يتحرر من المحاولات الشاقة في التقليد و من نخس وحث الاستحسان العام . فكذلك أيضاً هذا هو دور الدين الذي لا يهدف أبداً لتدمير طبيعتنا البشرية و لكن بإثرائها و العلو بها.

تعكس dharma –الكلمة السنسكريتية – في الديانة الهندية معني أعمق من معني الديانة ، ذلك المعني المقابل لها في الإنجليزية. تتضمن dharma الطبيعة و الجوهر و الحقيقة الضِمنية لكل شيء. Dharma هي المعني الاسمي بداخلنا. و ارتكابنا للخطأ ما هو الإ انتهاك لـــــ dharma،فيصبح بطلان لطبيعتنا الصادقة. لكن dharma ، تلك الحقيقة التي بداخلنا، ليست ظاهرية، و لكنها متأصلة بداخلنا. يظل ارتكاب الآثام جزء من طبيعتنا البشرية إلي أن تأتي المنحة الإلهية فتنقذنا حينما تكبح جماح الشر داخلنا. و ذلك أشبه بالبذرة التي تظل داخل قشرتها إلي أن تأتي معجزة خاصة تتسبب في نموها لتصبح شجرة. و لكن هل لا نعلم أن مظهر البذرة يتعارض مع طبيعتها الحقيقية؟ ، بالتحليل الكيميائي للبذرة نري أنها تتكون من كربون و بروتيد و أشياء أخري نافعة. و لا نجد وجود فكرة الشجرة المتفرعة ضمن هذا التحليل. فقط يمكنك أن تري dharma حينما تبدأ البذرة في أخذ شكل لها، في ذلك الوقت لا يكون لديك أدني شك في أن البذرة – التي تبددت أو تعفنت في الأرض– قد حدث لها إخفاق في وصولها إلي أصدق طبيعة dharma . و علي مدار تاريخ البشرية عرفنا ما تلك البذرة التي تنمو بداخلنا. و كيف هذه العظمة الداخلية تتشكل و تصبح هي بعد ذلك حياه العظماء. نعم هناك الكثير ممن يعاني العقم، و لكن ليست dharma هي التي تسببت فيه، بل علي العكس فهي التي تكشف عنهم الستار و تحويل حياتهم إلي انبعاث روحي نشط لينمو في الهواء و الضوء و يتشعب في كل الاتجاهات.

و حرية هذه البذرة هي عند ملاقتها لـــــ dharma ، أي بمصيرها لكي تصبح شجرة، هذا هو الإنجاز الذي تحققه البذرة – بفضل هذه الطبيعة– خارج السجن الداخلي. فالتضحية التي نصل بها للإنجاز ليست تلك التضحية التي تفضي إلي الموت، و لكنها التخلي عن القيود في سبيل الوصول للحرية.

عندما ندرك أقصي هدف للحرية يمكن أن يصل له الإنسان، فإننا ندرك حينئذ ما هي الـــــ dharma ، هي جوهر الطبيعة و المعني الحقيقي للنفس. قد يبدو للإنسان ، في الوهلة الأولي، أن الحرية هي تلك التي يحصل عليها باغتنامه أكبر عدد من الفرص لإسعاد النفس و تحقيق المصلحة الشخصية. و لكن بالتأكيد أن ذلك ليس هو ما يقوله التاريخ. نري الحكماء القدامى، أصحاب الوحي، كيف كانوا يعيشوا دائماً حياه التضحية. فالطبيعة و النفس العليا لدي الإنسان دائماً ما تبحث عن شيء يتجاوزها و يصل بها إلي أعماق الحقيقة. أيّ حقيقة؟ ، تلك الحقيقة تطالبنا بالتضحية و لكنها في نفس الوقت تعوضنا عنها. هذه هي الـــــdharma ، هي دين الإنسان، و هي نفسه و هي السفينة التي تحمل تضحيته إلي القداس.

إذ لنا أن ننظر إلي نفسنا من خلال وجهتي نظر مختلفتين. الأولي هي النفس التي ُتظهر نفسها و الثانية هي النفس التي تتعدي نفسها و تكشف عن مغزاها الحقيقي. فلكي تظهر النفس نفسها، فهي تحاول دائماً أن تبدو كبيرة بأن تقف علي عمود يعلو بالمكدسات و المدخرات التي تكتنذها . أما بالنسبة لوجهه النظر الأخرى فهي أن تتكشف النفس بالتخلي عما تملكه، و بذلك تصبح كاملة مثل الوردة التي تتفتح خارج البرعم فيخرج من جمالها عبق الزهور.

فالمصباح الذي يحتوي علي زيت الاشتعال، إذا احتفظ بالزيت داخلة حتي لا ينفذ، فليس له بد إلا أن ينفصل عن كل الأشياء التي حوله و من هنا تأتي التعاسة. و لكن حينما يشع نوراً فيكون له في كل لحظة معني. فتنشأ علاقة بين المصباح و بين كل الأشياء البعيدة و القريبة ، فهو إذن يتحرر من القيد و يضحي بمخزون الزيت لكي يشتعل اللهب و يبعث ضوئه ويحافظ علي قيمته كمصباح.

هذا المصباح هو نفسنا. فطالما هو يختزن ما لديه من ممتلكات، فسيعيش في ظلام، و هنا يتعارض هذا الامتلاك مع الغرض الحقيقي له. و لكن عند الاستنارة ينسي نفسه، و هكذا في سبيل انتشار الضوء يضحي بكل ما لديه، لأنه بذلك يستطيع أن يري نفسه الحقيقية و هذا هو تماماً ما يحدث للنفس البشرية. إنه الانكشاف الذي يدرسه بوذا. فوفقاً له تضحي النفس بزيتها، و لكن التضحية بدون هدف ما هي إلا انغماس أعمق في الفقر المظلم الذي ليس له أي معني. لذلك هذا هو دور المصباح أن يعطي زيته من أجل الضوء و بذلك يكون هناك هدف من هذا التخزين. هذا هو معني التحرر. و تعاليم البوذا ليست فقط ممارسة لنكران الذات، و لكن من أجل نشر الحب. و هنا يكمن المغزى الحقيقي من هذه التعاليم.

حينما نجد نيرفانا Nirvnana ، التي يُدرسها لنا البوذا، من خلال الحب، عندئذ ً نكتشف أنها هي أكبر بلوغ للحب. فالحب هو غاية النفس.نحن نسأل أنفسنا « لماذا؟» في كل شيء، و نطلب مبرر لذلك. لكن حينما يقول أحدنا « أنا أحب» فلا نحتاج لأن نسأل لماذا، لأنه الإجابة النهائية ذاتها.

دون شك، تجبرنا الأنانية علي البقاء بعيدا ً عن الحب. لكن الإنسان الأناني يفعل ذلك علي مضض. فذلك مثل قطف الفاكهة حينما تكون غير ناضجة، فيقطفها و يكدم فرع الشجرة .

لكن حينما يحب الإنسان، فالعطاء يصبح سبب في سعادته، حينما تتنازل الشجرة برضاها عن الفاكهة الناضجة. ولكن إذا تخلينا عن الحب و اندفعنا وراء الجاذبية المستمرة لرغباتنا الشخصية تصبح كل ممتلكاتنا عبء علينا ، و لا نستطيع بسهولة البعد عن هذا العبء. و لكن عندما يمتلكنا الحب، فتعمل قواه في الاتجاه المعاكس لهذه الأنانية. عندئذ يزول قيد الأشياء التي حولنا و نتحرر و نستطيع أن نجد أنفسنا.

و هكذا نجد في الحب الكامل حرية أنفسنا. و تقترن تلك الحرية بما نبذله فقط من أجل الحب – بالرغم مما نتكبده من معاناة في سبيل ذلك. و هكذا فالعمل من أجل الحب هو حرية الفعل، تلك هي دروس العمل عند الجيتا –Gita–.

يحثنا الجيتا Gita علي الفعل، لأننا بالفعل و بذل المجهود نستطيع أن نكشف عن طبيعتنا. و لكن يظل هذا الكشف ناقص لوجود ما يقيد هذا العمل، و علية نُحجب عن طبيعتنا بسبب هوس الرغبة أو الخوف. مثل الأم التي تكشف عن نفسها برعايتها لأطفالها، لذلك فالحرية ليست حرية نتيجة للفعل و لكن حرية في الفعل نفسه، تلك الحرية ننعم بها عند الانشغال بأعمال هدفها الحب.

يتجلي الإله في خلقة ، وفقاً للأوبانيشاد فالمعرفة و القوة و الفعل هي طبيعته، فلا تأتي تلك الأشياء إلية من الخارج لتفرض نفسها. و هكذا يصبح فعلة هو الحرية نفسها، و يستطيع في خلقة أن يدرك نفسه. يأتي هذا المعني من خلال النص التالي و لكن بكلمات مختلفة: «فمن السعادة ينبع كل الخلق و بالسعادة نحافظ عليه و في سبيلها يسعي الخلق و إليها يصل». فمصدر الخلق ليس في طلب للحاجة و لكن في شعوره بالسعادة، فتلك هي السعادة التي يخلقها الحب، ومن خلال الخلق ينكشف الإله .

الفنان الذي يجد البهجة و المتعة في اكتمال فكرته الفنية، فإنه يسعي لتجسيدها و بلورتها فيكسبها كمال و ثراءً أكثر يصل بها لأبعد مدي. تلك هي السعادة التي تنتزع منا أنفسنا، فتصيغ لها شكلاً في وسط إبداعات الحب وتجعل أنفسنا لنا وليست علينا . و هكذا فيجب أن يكون هناك هذا الانفصال، ليس المقصود بالانفصال هو الانفصال المُنفر و لكن الانفصال الناتج عن الحب. فالانفصال له عامل واحد هو التباعد و لكن الحب له جانبين، أحدهما يكون التباعد و هو الجانب الظاهري للحب و الأخر هو جانب الوَحدة و الانسجام ، وهذا الجانب الثاني هو الجانب الحقيقي الذي يحمل الحقيقة المطلقة. فقط مثل الأب الذي يداعب أبنه فيقذفه إلي أعلي من بين ذراعية ، فيبدو ذلك أنه رفض و لكن الحقيقة هي العكس تماماً.

لذلك علينا أن نعرف أنه ليس لنا أن نجد نفسنا في تباعدها عن الإله و عن الآخرين، و لكن نجدها في الإدراك المتواصل لليوجا yoga (الوحدة). نجد هذه الوَحدة (اليوجا) في لوحة فنية حيث يوجد علي أحد الأوجه العمل الفني بينما ظهر اللوحة (الوجه الأخر الفارغ) ليس فيه هذه الوحدة.

لذا يصف الفلاسفة انفصال أنفسنا بأنه maya) أي وهم(و ذلك لأنه لا يوجد في الانفصال حقيقة جوهرية لنا. هذا الانفصال خطر فهو يرفع الوهم إلي قمة عالية يصاب فيها بالدوار ثم يلقي بظلة المظلم علي الوجه الجميل للوجود،و يكون التباعد المفاجئ الثائر و المدمر، أي الزهو المستبد العنيد، الذي يكون علي استعداد أن يُجرد العالم من كل ما يملكه لكي يُرضي تلهفه في لحظة، فيقطف بيده القاسية الطائشة ريش طير الجمال المقدس لكي يكسو قبح اليوم بأناقة ظاهرية. فعلاً تحمل أسطورة الإنسان علامات سوداء للتمرد والعصيان تظل وصمة علي جبينه أبد الدهر، و لكن يبقي كل ذلك maya (وهم)، غلاف من الـــــ avidya . فليست الأسطورة شمس و لكن كومة من الضباب و الدخان الأسود الذي ينُذر بنار الحب.

تخيل معي الشخص الأناني القاسي حينما- بجهله- يظن أن الورقة المالية هي بمثابة السحر له، أي بها يحصل علي كل ما يشتهي. فيظل يكدس هذه الأوراق المالية، و يخفيها و يستعملها بطرق منافية للعقل، ثم يأتي بعد ذلك يظل قلقاً علي ما أضناه فيصطدم بالمأساة حينما يدرك فعلاً تفاهة وعدم جدوى هذه الأوراق، في ذلك الوقت ليس له إلا أن يحرقها. الإنسان الحكيم هو الذي يعرف أن المال ما هو إلا maya ، فليس لها جدوى. إنه الـــــ avidya (الجهل) الذي يجعلنا نتصور أن الانفصال عن النفس – مثل المال- له قيمة في حد ذاته. و لكن بالسير في طريق الجهل نكتشف أن النفس ليس لها قيمة. فليس لنا سبيل في إدراك النفس و ما تحمله من ثروات إلا بترك هذا الطريق ، طريق الجهل. يظهر الإله في تلك الأشكال التي فيها سعادته . فهذه الأشكال بعيدة عنه و تكمن قيمتها فقط فيما تنقله سعادة الإله إليهم. و عندما نرد هذه الأشكال إلي السعادة الأصلية- أي الحب- فأننا نكتشف حقيقة و ثراء هذه الأشياء.

حينما يصبح دافع الإنسان إلي عملة – بشكل مطلق – هو الحاجة فتتكون لديه شخصية مؤقتة طارئة، أي ذات ظروف وقتيه، فتصبح شخصيته مُدمَرة و يتغير كيانه. و عندما يكون عملة هو الدافع و المحصلة النهائية من متعته و سعادته، حينئذ يُصبَغ كيانه بعوامل الأبدايه. لأن الإله الخالد في الإنسان يعطي له سمة الأبدية.

تظل النفس- كانعكاس للسعادة الإلهية – دائمة . أيضاً النفس هي التي تجعلنا نشكك في الموت، حتى و إن كانت حقيقة الموت شيء أكيد لا يقبل الشك. و لكن بتسوية هذا الصراع الداخلي، تظهر لنا حقيقة تلك الثنائية للموت و الحياة التي فيها نكتشف الانسجام الذي بينهما. نعلم أن علي حياه الروح – التي تنعكس في العالم المادي المحدود- المرور عبر بوابة الموت في طريقها لإدراك العالم المطلق. فالموت أحادي و لا حياه فيه، و لكن الحياة ثنائية ففيها الجانب الظاهري و الجانب الحقيقي، فالموت هو الجانب الظاهري فيها ، أي ذلك الرفيق الذي يلازم الحياة. فالنفس لكي تعيش يجب أن تمر عبر تغير مستمر و تطور دائم ، بمعني أخر هو استمرارية الموت مع استمرارية الحياة في آن واحد.

قد نغازل الموت عندما لا نُسلم به و عندما نرغب في إصباغ النفس بشيء من الثبات و عندما تشعر النفس أنه لا يوجد لديها دافع يحثها علي إنماء نفسها و عندما تتعامل النفس مع قيودها علي إنها نهائية و تسير علي هذه الوتيرة. و الموت المقصود هنا ليس أبداً إبادة النفس و لكن الموت الموجود في الحياة الأبدية . لأن هذا الموت هو مثل انطفاء المصباح في ضوء النهار، دون انطفاء الشمس. فيطلب منا بكل وعي أن نطلق العنان لرغبتنا الأعمق التي تتأصل في طبيعتنا.

لدينا نحن البشر مجموعة مزدوجة من الرغبات في كياننا، تلك الرغبات التي هي دأبنا للوصول إلي الانسجام. فنحن دائماً علي وعي برغبات طبيعتنا الجسدية. فنرغب في الاستمتاع بالطعام و الشراب، و نتطوق إلي المتعة الجسدية و الراحة. تلك الرغبات هي رغبات تتمركز حول النفس، فتستجيب فقط للدوافع الخاصة بها. فتسير شهوات الطعام و الشراب وفقاً لما تطلبه المعدة.

و لكن هناك نوعية أخري من الرغبات، تلك هي رغبة النظام المادي ككل، التي دائماً نحن مغيبين عنها. إنها رغبة الصحة (الصحة ككل). تلك هي التي تقوم بالفعل و الإصلاح و التعديل في حالة أي حادث، و ببراعة تعيد التوازن أينما يختل. فلا تهتم بحاجه إشباع الرغبات المادية الجسدية، و لكنها تتعدي الوقت الحالي ، لأنها هي قانون النظام المادي كله الذي يربط بين حياتنا في الحاضر و بين الماضي و المستقبل ، فتحافظ هذه النوعية من الرغبات علي وَحده الأشياء. و الشخص الذي لدية الحِكمة هو الذي يدرك ذلك، فيحدث لديه انسجام و تناغم بين نوعي تلك الرغبات.

الكيان الاجتماعي بمثابة الجسم الكلي الأعظم (أي الكائن الحي الكلي). و نحن فيه أعضاء هذا الجسم، و لدينا رغباتنا الشخصية التي نريد الاستمتاع بها و أيضاً السماح بها. فنحن نريد أن ندفع أقل و نكسب أكثر من أي شخص أخر. و هنا يكون التدافع و الصراع بين البشر هو النتيجة الحتمية للجري وراء هذه الرغبات. و لكن في ظل ذلك تعمل قوي أخري بعمق في هذا الكيان الاجتماعي. إنها رغبة إسعاد المجتمع كله. فتلك الرغبة تتجاوز حدود ما هو حالي و ما هو شخصي. فهذه الرغبة توجد علي مستوي المطلق .

فالعاقل هو الذي يستطيع أن يوازن بين الرغبات التي غايتها إشباع و إمتاع النفس و بين الرغبات التي تهدف لتحقيق الخير الاجتماعي، فهو فقط الشخص الذي يصل لإدراك نفسه العليا.

ففي الجانب المحدود، لا تري النفس إلا انفصالها و انعزالها، فتجد كل القسوة التي بها تحاول أن تتميز علي الآخرين. لكن في الجانب المطلق، الرغبة تكون لتحقيق الانسجام الذي يقود إلي الكمال و ليس البحث عن العلو و التفخيم المجرد.

يكمن التحرر من طبيعتنا المادية الجسدية في الوصول للصحة، أي صحة الكائن الحي الاجتماعي كله، فينعم هذا الكائن بالصحة عند تحقيق الخير، و تنعم النفس أيضاً بالصحة عن طريق تحقيق الحب.

هذا هو ما يصفه البوذا بأنه انطفاء للأنانية—تلك هي وظيفة الحب، و التي تؤدي إلي التنوير و ليس إلي الظلام. هذا هو طريق الوصول لـــــــ بوذا، أو الاستيقاظ الحقيقي، إنه انكشاف للمتعة المطلقة داخل أنفسنا من خلال ضوء الحب. ويحدث الانسجام التام بعبور النفس من فرديتها المستقلة وصولاً للروح الكلية. و لا يمكن أبداً الوصول لهذا التناغم بالإكراه. لذلك فرغبتنا، في تاريخ نموها، تمر بالاستقلال و التمرد ثم تصل بعد ذلك إلي الكمال النهائي. فيجب أن أن يكون لدينا هذا الجانب السلبي من الحرية، الذي هو بمثابة الرخصة، التي نحصل بها علي الحرية الإيجابية (أي علي الحب).

يمكن لهذه الحرية السلبية– حرية الرغبة الشخصية – أن تحيد بعيداً الإدراك الأعلى، و لكنها لا تستطيع أن تتحرر كليةً و تسير في هذا الاتجاه لأنها بذلك تفقد مغزاها. فرغبة النفس لها حد معين في حريتها ، فقد تعرف النفس هنا ما يمكن لها أن تتجاوزه في هذا الاتجاه ، و لكنها قطعاً لا تستطيع أن تستمر في هذا الاتجاه. ففي الجانب السلبي من حياتنا نحن محدودين. و لذلك يجب علينا أن نتوقف عن الشر ، أي نتوقف عن السير في الاتجاه المعاكس. فالشر ليس مطلق ، و لا التمرد أبداً نهاية في حد ذاته . فالرغبة لها الحرية عسي أن تكتشف الاتجاه الحقيقي لها الذي يهدف إلي الخير و الحب. فالخير و الحب ليس لهم أي حدود، وفي المطلق فقط يكون الإدراك التام للحرية. لذلك لا تنعم الإرادة بهذه الحرية إذا كان الطريق من خلال قيود النفس– حيث الجهل و الوهم– ولكن يبقي الطريق الوحيد و هو السير في اتجاه المطلق، حيثما توجد الحقيقة و الحب. فلا يمكن أبداً أن تسير حريتنا عكس قانونها الأساسي ثم بعد ذلك نريد أن نصل إلي الحرية المطلقة، فلا يستطيع الإنسان بعد انتحاره أن يعود ليحيا حياته مرة أخري. لا نقول أبداً أننا نريد أن نحصل علي الحرية المطلقة لوضع القيود حول أعناقنا، فأينما تكن القيود تنتهي الحرية.

لذلك ففي حرية الإرادة، لدينا ثنائية الظاهر و الحقيقي، فإرادة النفس هي فقط الجانب الظاهري للحرية و الحب هو الجانب الحقيقي. و عندما نجاهد في جعل هذا المظهر الخارجي بعيد عن الحقيقة، فيكون مصير محاولاتنا هو التعاسة و نكتشف في نهاية المطاف عدم الجدوى .

يحتوي كل شيء في الوجود علي هذه الثنائية ، الجانب الظاهر و الجانب الحقيقي ، أي الوهم و الحقيقة. فالكلمات التي نتفوه بها هي فقط الوهم حينما تكون عبارة عن مجرد أصوات نطاقها ضيق، و لكنها تكون حقيقة حينما تكون أفكار معبرة. و بعني أخر فالانفصال المطلق هو وهم النفس،و لكنها حينما تدرك الجوهر في العالم المطلق فتكن تلك هي الحقيقة، أي معرفة النفس العليا. و هذا هو ما يعنيه المسيح حينما قال: « قبل أن يأتي إبراهيم إلي الوجود، أنا أكون». هذه النفس المطلقة (الكينونة) هي التي تتحدث أيضاً من خلال تلك الكينونة (أنا أكون). يصل الفرد بواسطة الكينونة(أنا أكون) إلي النهاية الكاملة حينما تدرك نفسه أن حرية الانسجام في العالم المطلق تكون من خلال (أنا أكون). أي التحرر من عبودية الوهم النابع من الجهل، و هذا التحرر يكون من خلال، الإذعان التام للحقيقة و أيضاً من خلال النشاط الكامل في الخير و في الوَحدة الكاملة للحب.

لا يوجد هذا الانفصال عن الإله فقط في النفس و لكن أيضاً في الطبيعة، و يرجع وصف الفلاسفة لهذا الانفصال بالـــــــ maya إلي أن هذا الانفصال ليس له وجود بذاته و لا يقيد المطلق. هذه هي الإرادة التي تفرض حدودها علي نفسها، مثل لاعب الشطرنج الذي يلتزم بأصول اللعب في تحرك قطع الشطرنج. حيث يدخل اللاعب إلي اللعب من خلال علاقة محددة مع كل قطعة معينة من قطع الشطرنج و يدرك متعة القوة من خلال هذه القيود و الحدود. ليس ذلك هو عدم قدرة منه في تحريك قطع الشطرنج كما يشاء و لكنه إن فعل ذلك فلا يوجد أساس للعب. و إذا استخدم الإله بدورة السلطة الكلية التي لدية، فلا يجد الخلق قيمة لهم. و لكن القوة بالالتزام بسلطتها فقط داخل نطاق حدودها. و علي سبيل المثال يجب أن تظل المياه هي المياه لا يتدخل فيها الإله و لا يغيرها وكذلك الأرض. القانون الإلهي الذي لم يتدخل ليغير في المياه و الأرض ، هو نفس القانون الذي يمنع اللاعب من التحكم في اللعب كما يريد، و من هنا تنشأ متعة اللاعب.

و وفقاً للقيود التي يفرضها القانون ، فالطبيعة تنفصل عن الإله، فتلك هي حدوده التي من خلالها تفصل عنه النفس. فبرغبته وضع القيود علي إرادته و ترك لنا سلطه علي عالمنا البسيط. مثل الأب الذي يسمح لأبنه ببعض الحرية ليفعل ما يريده. فبالرغم من أنه يظل جزء من ملكية والده، إلا أنه ترك – بمحض إرادته – لابنه بعض الحرية . سبب ذلك هي الإرادة– إرادة الحب و الحرية الناتجة عنها– التي تجلب المتعة بسبب اتحاد إرادة حرة مع إرادة أخري.

ينظر الطاغية إلي عبيدة علي إنهم هم الأداة التي بها يحقق غرضه. هذا هو الوعي بحاجته التي تجعله يفرض جبروته عليهم و يطلق إرادته لتحقيق أقصي حماية لمصلحته الشخصية. و لا تسمح المصلحة الشخصية بأدنى قسط من حرية الآخرين و ذلك لأنها هي نفسها ليست حرة. ففعلاً يعتمد الطاغية علي عبيدة، و هكذا فإنه يحاول تحقيق أقصي المنفعة من خلال سيطرته عليهم. و لكن المحب ، علي العكس تماماً،يجب أن يكون لدية إرادتين في إدراك حبه، لأن بلوغه الحب يكون بالكمال، هذا الكمال الذي ينشأ من اندماج حريتين معاً. لذلك فإن حب الإله –الذي منه تتشكل النفس– هو الذي فصل النفس عن الإله، و هذا هو الحب يعود ثانيه ليوحد بين الإله و بين النفس و يجعل بينهما انسجام. هذا هو السبب في وجوب مرور النفس عبر تجديدات مستمرة، و لكنها بالانعزال لا يمكن لها أن تستمر إلي الأبد. انعزال النفس محدود ، فعنده تقف النفس فتعود ثانية إلي المصدر المطلق . لا تتوقف النفس عن إهدار العمر، فمرراً و تكرراً ما تفقط الحدود بالنسيان أو بالموت، أثناء طريقها لإدراك الشباب النهائي. و علي الفرد أن يندمج دائماً في الحياة الشاملة، فالنفس فعلاً تمر بذلك في كل لحظة لكي تنتعش. فعلي النفس الالتفات إلي هذا التناغم و الإيقاع الداخلي وأن تلمس هذه الوَحدة الدائمة في كل خطوة. عندئذ لها أن تظفر بالانفصال و التفرد المتوازن الذي ينتج من الجمال و القوة.

نري المشهد المسرحي للحياة و الموت في كل مكان – هذا التحول من القديم إلي الجديد. كل صباح يبدأ يوم جديد عارٍ مشرق و أبيض مثل الوردة و لكننا نعرف أن في طياته يوجد القِدم . هذا هو العُمر

نفسه. و هو الزمن القديم الذي يأخذ الأرض الحديثة الولادة ، فيغلفها بضوء أبيض، و يرسلها إلي مكانها بين النجوم. وفي الوقت الذي تكن فيه الأرض مُتعَبة و معصوبة العينين ترسل التعويذة الذهبية للخلود الأبدي،و بلمسة منها تختفي كل التجاعيد من علي جبين الخلق. ففي لب العالم يوجد الشباب الأبدي. يمر الموت و التعفن فقط كالخيالات الظالمة علي وجهها دون ترك أي أثار و تظل الحقيقة دائماً بحاله النضارة و الشباب. هذا الزمن القديم، يتجدد مع كل يوم جديد كل صباح. حيث يعاود للإنشوده الغنائية الأصلية.

إذا كان الاتجاه مباشرةً نحو العالم المطلق، و إذ لم يكن هناك فاصل من الظلام المفزع ، و إن لم تكن هناك تلك الولادة الجديدة المتكررة المستمرة ، عندئذ فستتلوث الحقيقة ثم تدفن تدريجياً في التراب تحت وطأه الأقدام المنهكة الثقيلة تاركة خلفها حِمل المعاناة في كل لحظة، و يعلو العَجَز علي عرش التراب الأبدي.

لكن يُولد اليوم كل صباح بين الورود الحديثة و يحمل معه نفس الرسالة من جديد مع نفس اليقين المتجدد بأن الموت يتلاشي أبدياً، و هذه الأمواج من الاهتياج هي فقط علي السطح ويظل بحر الهدوء كما هو عميق. و يتلاشي ستار الليل المظلم و تتكشف الحقيقة بدون أي ذرة تراب علي ثوب الحقيقة، و بدون ظهور أي تجاعيد علي قسَمات و ملامح وجهها.

فما هو موجود منذ القِدم مازال مستمر حتي اليوم. تأتي النبرات الموسيقية لأغنية الخلق من صوت الإله. و ليس الكون مجرد صدي، يدوي من سماء لسماء، مثل المتجول الشريد— تأتي الأغنية القديمة مرة مع كل بداية للأشياء و ثم تعود و تتركه مرة أخري كاليتيم و هكذا. تأتي الأغنية من صميم قلب المايسترو (الإله) و تخرج من بين أنفاسه.

هذا هو السبب في انتشارها عبر السماء ، مثلها مثل الفكرة الذي تظهر عبر احدي القصائد، و لا تتقطع أبداً إلي قطع فيتكون عبء الوزن المتراكم. و هكذا فإن مفاجأة التغيرات المستمرة و حلول المفاجآت و التقدم المستمر للأفراد يتلاشي كلٍ منهم في توازن الخلق. فما يبدأ به ينتهي به، فالبداية لا تنتهي—و العالم قديم و جديد في نفس الوقت.

إنها نفسنا التي يجب أن تُولد جديدة في كل لحظة من حياتها. فتحطم الوهم الذي يحملها في طياته ، ذلك الوهم الذي يجعلها تظهر قديمة و يجعل الموت عبء عليها. فالحياة تظل أبد الدهر خالدة، تكافح و تتغلب علي الزمن الذي يحاول أن يعرقل حركاتها- ذلك الزمن الذي في الواقع لا ينتمي إلي الحياة، و لكن يتبعها مثل إتباع الظل للمصباح.

الحياة، مثل النهر، الذي ترتطم مياهه بالضفاف، و ليس هذا الارتطام لكي يجد النهر نفسه محدود من خلالهم، و لكن لكي يدرك في كل لحظة أن هناك بداية مطلقة تجاه البحر. و بالمثل القصيدة التي

تخترق الوزن الشعري في كل خطوة ليس لكي تكن صامته من خلال الأنظمة الصلبة، و لكنها لكي تعكس الحرية الداخلية لانسجام القصيدة.

تجعلنا فردية النفس – من ناحية– نتقهقر للخلف لنظل سجناء داخلها، و من ناحية أخري تقودنا نحو المطلق و اللامحدود. و لكن إذا كنا نسعي لجعل من هذه القيود مطلقة، فهل ندخل في دوامة من التناقض المستحيل و نتعرض للفشل الذريع؟.

هذا هو السبب وراء أعظم الثورات في تاريخ البشرية. و أينما يرغب الجزء بداخلنا (أي فرديتنا) في الانفصال رفضاً منه للقوة الكلية، فإن قوة الجذب الرهيبة لهذه القوة الكلية لها أن تنتزعه فجأةً و تسحبه عنوه، ثم تعيده إلي التراب. و لكن أينما يحاول الفرد أن يقف في وجه التدفق المستمر لقوة العالم و يسعي أن يستطر علي تلك القوة في نطاقه الخاص، فبالتأكيد سيفضي ذلك إلي كارثة. بالرغم من القوة التي يمتلكها الملك إلا إنه لا يستطيع أن يتحكم أو يثور ضد المصدر المطلق لهذه القوة، هذا المصدر هو الوَحدة التي تظل دائماً لها قوتها.

قد يصل الإنسان لما يريده عن طريق ارتكابه الآثام ، ويفوز بما يرغب فيه، و ينتصر علي أعداؤه، و لكنه في النهاية يكتشف انه قد اقُتلع من جذوره و يلقي الدمار و الفناء. و لكن تجنباً لذلك فيجب أن تغوص هذه الجذور بعمق في المنظومة الكلية إذا كان الإنسان يرغب في بلوغ عظمَّة النفس. هذا ما تصبو إليه النفس التي ترغب في الوحدة. عليها إذن الخضوع للحب والتسليم بأن أعظم الأشياء و أصغرها تتلاقي دائماً في وَحده مع بعضها البعض.

فعلي النفس التحلي بالتضحية لتفوز و بالاستسلام لتعلو. يتحول لعب الطفل إلي رعب إذا كان هذا اللعب مطلق فعلي الطفل أن يعود إلي أمه (أي إلي المصدر) حتي يزول هذا الرعب. و بالمثل يصبح كبر النفس لعنه علينا إذا لم نتركه و نستسلم للحب. لذا علينا أن نعي جيداً أن لأنفسنا معني و قدر فقط من خلال الوصول للعالم المطلق الذي يظل دائماً و أبداً متجدد و جميل.

***

(المعاني الواردة في الترجمة أعلي باللون الأحمر وفقاً لمدلولها في الديانة الهندوسية)

* (نيرفانا Nirvnana) هي حالة الانطفاء الكامل التي يصل إليها الإنسان بعدفترة طويلة من التأمل العميق ، فلا يشعر بالمؤثرات الخارجية المحيطة به على الإطلاق أي انه يصبح منفصلا تماما بذهنه وجسده عن العالم الخارجي ، و الهدف من ذلك هو شحن طاقات الروح من أجل تحقيق النشوة و السعادة القصوى و القناعة وقتل الشهوات.

* (مايا maya) فوفقاً للديانة الهندوسية، فالله أفاض ذاته بغته إحداث وهم الخلق (و إن مايا هيرونو وحده موجود؛ وكل شيء هو في النهاية وهم (مايا . لذا يُعتبر الجسد المادي في النهاية وهماً

(مايا maya) مع قيمة متأصلة أو دائمة ضئيلة. ولذلك يتم عادةً إحراق أجساد الأموات، فتذهب الروح الخالدة إلى حالة وسطية من العقاب أو المكافأة قبل أن تتقمص في جسد آخر. وتُختبر التناسخات إلى أن يكون السلوك قد أزيل من أجل إجازة استيعاب الروح ثانيةً داخل هيرونو

* (براهما (Barhma: هو سيد كل الألهه، فهو القوة الخالقة للطبيعة. تحدد نقطة البداية في العقيدة الهندوسية مع بداية الخلق ، حيث تبدأ بوجود عملاق في السماء اسمه (براهما) يدَّعي أنه (الإله) حين يقول : (أنا أقوى من السماء وأعظم من الأرض وأرفع من كل هذه الأجرام والكواكب حولي.. أحتوي كل شيء وأكمن في كل شيء ،لا تدركني الحواس ، لأني أنا حقيقة الحقيقة.. أنا براهما).

* (يوجا (Yoga : واليوجا كلمة سنسكريتية معناها «النير»

وسميت كذلك لأنَّها تخلّص النفس من نيرالبدن ومن نير الشهوات. اليوغا هي طريق لتسهيل الاتحاد بالنفس الكلية. فتتخلص النفس من نوازع الأنا ليكون محبّاً للنّاس جميعاً، هذه الدرجة الرفيعة تعطي لصاحبها. و منها نشأت رياضة اليوجا التي تهدف لسلام النفس و الوحدة.

5- الإدراك من خلال الحب

نأتي الآن إلي المشكلة الأبدية للعلاقة بين العام المحدود و العالم المطلق ، أي العلاقة بين النفس البشرية العليا و الروح. يكمن في هذا الوجود تناقض رهيب، و ليس لنا أن ندور حول هذا الموضوع لأننا لا نستطيع أن نقيم هذه العلاقة من الخارج و لا نوازن بينها و بين أي بدائل أخري.

و لكن تظهر هذه المشكلة فقط علي مستوي المنطق، و لكنها في الواقع لا تعتبر مشكلة علي الإطلاق. فوفقاً للمنطق، أن المسافة بين نقطتين،مهما أن كانت قريبة، فهي مسافة مطلقة، لأنها بشكل مطلق قابلة للقسمة. بمعني أننا ندنو من العالم المطلق في كل خطوة، و نقابل هذا الجانب الأبدي كل لحظة. لذلك يري بعض الفلاسفة أنه لا يوجد شيء محدود، لأن المحدودية ما هي إلا وهم maya. الحقيقي هو المطلق، و الوهم maya هو فقط الذي يسبب ظهور العالم المحدود. و لكن تبقي كلمة maya مجرد إسم، دون شرح. فهي فقط تعني أن هناك ما هو ظاهر يناقض الحقيقة، و لكن كيف تجتمع كلا النقطتين في الوجود و في نفس الوقت يوجد حولهما الغيوم و عدم الفهم.

في اللغة السنسكريتيه القديمة، نطلق علي ذلك dvandva، أي سلسلة من التناقضات في الخلق، فقط مثل القطب الموجب و القطب السالب، القوة المركزية و القوة الطاردة من المركز. تلك أيضاً هي مجرد أسماء فلا يوجد لهما تفاسير. فهما فقط عبارة عن طرق مختلفة للتأكيد أن في جوهر العالم يوجد التوافق بين أجزاء القوي المتناقضة. تلك القوي، مثل اليد اليمين و اليد الشمال للخالق ، فكليهما يعملان في انسجام مطلق، و لكن في اتجاهين متناقضين.

فعلاقة الانسجام و التوافق تظهر أيضاً بين عينينا الاثنتين، تلك العلاقة هي الوَحدة و الاتساق التام بينهما. مثل الاستمرارية القوية للعلاقة الوطيدة في العالم المادي بين كلٍ من الحرارة و البرودة، بين الضوء والظلام، بين الحركة والسكون، بين العزف المنخفض للبيانو و العزف ثلاثي الأضعاف. هذا هو السبب في عدم وجود إرباك أو تشويش في العالم ناتج عن هذه التناقضات.

فإذا كان الخلق عبارة عن فوضي، فلنا أن نتخيل كيف كان يعمل كلا الطرفين بكل ما لديهم من قوي في الاستحواذ علي الأخر. و لكن لا يعمل الكون وفقاً لقانون عسكري استبدادي مؤقت. لا توجد قوي تسير بشكل جنوني أو تسير بشكل همجي مثل من ينتهك القانون يهدم علاقات الانسجام في البيئة حوله. و لكن تعود تلك القوي مثل المحني إلي توازنها مرة أخري. تعلو الأمواج، كلٍ في ارتفاع منفصل عن الأخر، كأنها مسابقة شرسة صارمة، و لكن لم يلبث البحر إلا أن يعود إلي نقطة معينة،

نقطة السكون الهادئ التي نعرفها جيداً، ففيها تتلاقي كل تلك القوي مع بعضها البعض تارة أخري لتشكل هذا الإيقاع الرائع الجميل للبحر.

ليست أبداً تلك التموجات و الذبذبات، و الصعود و السقوط السبب في التشويه الشاذ للأجسام المختلفة في الكون، بل أن كل هذه القوي تشارك في رقصة كلية ذات تناغم. لا يأتي أبداً التناغم و الإيقاع بسبب صراع يتكون ينشأ بالصدفة في معركة، لذلك الوحدة هي المبدأ الأساسي و ليس العكس أبداً.

هذا المبدأ، مبدأ الوحدة هو لغز الألغاز. فوجود تلك الثنائية يثير في عقولنا التساؤل و الاستغراب و لكن نرغب بالإجابة عليه من هذه القوة الواحدة. حينما نجد في النهاية علاقة بين كلا الجانبين، و نري أن كلٍ منهما يشكلان شيء واحد في الكون، فإننا نأتي إلي اكتشاف الحقيقة. فنتعجب من كل هذه التناقضات و نذهل حينما يكون الواحد ، ظاهرياً، هو العديد من القوي المتناقضة، و لكن تبقي الحقيقة التي تتنافي تماماً مع هذا الظاهر. و هكذا التساؤل و الإجابة معاً في شيء واحد.

مع الفضول الكافي، فقد البعض هذا الشعور بالغموض، الذي هو أساس كل سعادتنا ، تلك السعادة التي شعرنا بها عندما اكتشفنا وحده القانون من خلال اختلاف الطبيعة. كما لو كانت الجاذبية ليست أكثر من وقوع التفاحة و كما لو كان التحول من كفه ميزان إلي أخري أكثر خزي من نجاح الخلق. تكمن المشكلة في إننا نقف عند هذا القانون كأنه النهاية المحدودة لكل البحث، و لكن نكتشف أن ذلك ليس هو حتى بداية لتحرر روحنا. قد يرضي ذلك عقلنا، و لكن لا يلقي ذلك رضا الكيان كله ، فكل ما يحدث هو إخماد الشعور بالمطلق داخلنا.

عند تحليلنا لأي من القصائد العظيمة، فإننا نكتشف أنها عبارة عن مجموعة من الأصوات المنفصلة. فالقارئ الذي يكتشف المعني، ذلك المعني الداخلي الذي يربط بين كل الأصوات الخارجية للقصيدة، يدرك هذا القانون الكامل الذي يحكم القصيدة كلها، و لا يمكن انتهاك هذا القصيدة علي الإطلاق سواء بالنسبة لقانون تطور الأفكار أو قانون الإيقاع الموسيقي أو بالنسبة لقانون تكوينها.

القانون في حد ذاته محدود، إنه فقط يظهر أن الشيء الموجود لا يمكن أبداً أن يكون علي العكس. عندما ينشغل الإنسان بشكل مجرد بالبحث في صلات السببية، فإن عقلة يخضع لطغيان القانون هروباً من طغيان الحقائق. ففي تعلم اللغة، إذا وصلنا إلي قانون الكلمات من مجرد الكلمات، فيكون ذلك إنجاز كبير. و لكن إذا توقفنا عند هذه النقطة، و كان كل اهتمامنا منصب حول عجائب تكوين اللغة ً محاولة ً منا لكشف السبب الخفي وراء اللحن الموسيقي الظاهري، فلا نصل أبداً إلي نهاية —لأن قواعد اللغة ليست هي الأدب،و لأن دراسة أوزان الشعر ليست هي القصيدة نفسها.

و عندما نأتي إلي الأدب، فإننا نكتشف أنه بالرغم من كونه تأكيد لقواعد اللغة إلا أنه شيء من أجل المتعة، فهو التحرر نفسه. فجمال القصيدة مقيد فقط بالقوانين الدقيقة و الأوزان الشعرية، و لكن القصيدة نفسها تفوق قيد هذه القوانين. فالقوانين مجرد أجنحة تحافظ بها علي التوازن، لتحملها إلي الحرية. و يظل الجمال هو التحرر التام الذي يسير من خلال هذا القانون. يتناغم داخل الجمال المحدود و المطلق ، أي القانون و الحرية معاً.

لذلك ففي القصيدة الكونية الكلية، لا ننكر أبداً أن اكتشافنا لقانون اللحن الموسيقي بداخلها، و قياس التمدد و الانكماش، و دراسة الحركة و الوقف في القصيدة، و متابعة تطور الأشكال و الحروف، كلها انجازات حقيقية للعقل، و لكن لا نتوقف عند هذا الحد، أي مثل محطة القطار، و لكن رصيف المحطة ليس هو المنزل. يصل إلي الحقيقة النهائية الكاملة فقط من يعرف أن العالم كله ما هو إلا خلق الروح الكلية و متعتها المنتشرة في الخلق كله.

يقودنا ذلك إلي أن نفكر في كيفية غموض تلك العلاقة التي بين القلب البشري و الطبيعة. فعالم النشاط الخارجي له فقط جانب واحد، و لكن يشكلان معاً صورة مختلفة فقط في العالم الداخلي ، أي في عقولنا.

و علي سبيل المثال—تلك الزهرة، التي حينما ننظر إليها نري فيها الجمال و الروعة، تلك الوردة ما هي إلا حشد لتحقيق خدمة عظيمة، فالألوان و الأشكال كلها متناسبة مع عملها. فهي تعمل جاهده لتنتج الثمار و إلا لما استمرت حياه الزرع ، و تحولت الأرض إلي صحراء. فالألوان وراحة الزهرة يعملان معاً لغرض واحد، فأجلا أم عاجلاً تأخذ سمادها من النحلة، وبذلك يكون ذلك هو وقت الإثمار، ثم تتخلص بعد ذلك من البتله الرائعة و يكون النظام الاقتصادي القاسي ما هو الإ إرغام لها لكي تعطي هذا العطر الجميل. فلا يوجد لديها أي وقت لكي تزدهي بجمالها، فهي دائماً مشغولة . فنراها و كأنها هي العامل الوحيد في الطبيعة التي فيها كل شيء يعمل و يتحرك.

و هناك يتطور البرعم إلي زهرة ثم إلي ثمرة، و الثمرة إلي بذرة، و البذرة إلي زرعه جديدة مرة أخري، و هكذا، تسير سلسلة النشاط بشكل متواصل. هل هناك أي عائق يعوق البذرة ، لا يقبل منها أي عذر، و عند أي اضطراب يظهر فجأة فسرعان ما يتلاشي و يختفي لأنه غير مسموح له بالوجود. إذ تخيلنا للطبيعة مثل المكتب الإداري الكبير، و هناك عدد كبير من الأقسام دائمة العمل، و تلك الوردة التي تشاهدها هناك، مزخرفة و أنيقة و يفوح منها العطر الذي يملا المكان مثل من يتزين ليكون في غاية الأناقة و الانبهار، هذا هو ما يظهر و يبدو بها، و لكنها مثل العامل الكادح الذي يعمل في الشمس أو في وابل من الأمطار و مطالب بأن يقدم عمله و ليس لدية أي وقت حتي للتنفس أو للاستمتاع أو للهو و لو قليلاً.

و لكن عندما تدخل نفس هذه الزهرة في قلب أي شخص، فتصبح هي شعار الراحة والاسترخاء. فنفس الزهرة التي هي انعكاس للنشاط الدائم فهي بشكل مؤكد تعبير دائم للجمال و السلام الداخلي.

فالعلم هنا دائماً ينذرنا بخطئنا ، من حيث أن الغرض من الزهرة ليس الإ ما هو منعكس في العالم الخارجي. و من الوهم أن نعتقد أن علاقة الجمال بالأريج نحن من نصنعها.

و لكن يرد القلب بأنه ليس هناك أي خطأ أبداً. ففي نطاق الطبيعة، تأتي الزهرة و تحمل معها شهادة تثبت أن لديها طاقة هائلة لديها لتقوم بالعمل المفيد المطلوب منها، و لكنها أيضاً تحمل معها خطاب تدق بة علي أبواب قلوبنا. فالجمال هو فقط المؤهل، فهي تكون في مكان خادمة و في مكان أخر تمتع بالحرية. و لكن هل نحن نرد الجميل للتوصية الأولي و لم نؤمن بالثانية؟.

نعم ليس هناك شك في حقيقية أن هذه الزهرة لها كيانها وسط السلسلة السببية الكونية، لكن تلك الحقيقة هي فقط الحقيقة الخارجية. لكن بالنسبة للحقيقة الداخلية « يقيناً تولَدَ تلك الأشياء من السعادة الدائمة الأبدية».

و علي أساس ذلك فالوردة لها وظيفة واحده في الطبيعة، و لكن لها وظيفة عظيمة أخري علي الإنسان تدبرها. ما هي تلك الوظيفة؟ ففي الطبيعة هي خادمة عليها أن تظهر في مواعيد محددة، و لكن في قلب الإنسان، فهي تأتي مثل الرسول من الملك. في Ramayana الراميريانا عندما تم التفريق بين Sita سيتا بالقوة عن زوجها، هل ظلت تندب حظها في قصر ريفانا الذهبي؟، قابلت سيتا فيما بعد رسول أحضر لها معه خاتم من حبيبها Ramachandra . في البداية اقتنعت فعلاً سيتا بالأنباء التي أتي بها الرسول بخصوص معاناة حبيبها. و كان بداخلها كل الاطمئنان بأن هذا الخاتم من حبيبها الذي لم ينساها و إنه في يدها لينقذها.

هذا الرسول هو الزهرة التي بعثها حبيبنا العظيم (الروح الكلية). جاء يحيط به موكب هائل و أبهة من الخيرات المادية التي قد تكون جاءت من المدينة الذهبية لريفانا Ravana . فمازلنا نعيش في المنفي و تبقي الروح المتغطرسة للإزدهار الدنيوي تغرينا بشتي طرق الإغراء كالعروس. في هذه الأثناء، تأتي الزهرة برسالة أخري من شاطئ أخر، وتهمس في أذننا « لقد حضرت. هو الذي أرسلني. فإني رسول الإله الجميل، الواحد الذي روحة هي بهجة و نعيم الحب. هو الذي يقترب من الجزيرة المنعزلة التي أنت بداخلها ، فهو لا ينساك، و سينقذك الآن. سيأخذك لدية و يجعلك منه. فلا تظل دائماً عبد هذا الوهم».

في حالة استيقاظنا، نسأله: « كيف نعرف أن هذا الفن الذي لديك يأتي فعلاً منه؟» يجيب الرسول و يقول، « انظر! لديّ هذا الخاتم منه. إلا يبدو جميل و ساحر»!

بلا شك، إنه منه – فعلاً، فهو مثل خاتم الزواج. بعد ذلك يذهب أي شيء أخر في طيات النسيان، إنه هو الرمز الجميل للمسة الحب الأبدية التي تملؤنا منذ زمن بعيد. نحن ندرك أن قصر الذهب المادي الذي نعيش فيه لا يقدم لنا أي شيء— فحريتنا خارجه، في هذا الوقت فقط لنا أن نجني ثمار الحب.

تبقي الزهرة بالنسبة للطبيعة هي فقط لون و رائحة ذكية، و ما عليها من علامات ونقاط هي السبيل لتكوين العسل، تلك الزهرة بالنسبة للقلب البشري هي الجمال و المتعة ، و لا تكن أبداً الحاجة عائق للجمال و المتعة. فالزهرة هي خطاب حب مكتوب بعدة ألوان مُرسل إلي القلب. و كما سبق أن قلت لكم، أنه بالرغم من انشغالها الدائم في الطبيعة المادية الخارجية إلا أن لها مكان خاص في القلب تأتي إلية و تشعر بالحرية، بدون وجود تصميم و مخطط خاص. هناك (في القلب) تتحول نيران عمل هذه الزهرة إلي مصابيح ، فضوضاء المصنع الداخلي لها يبدو و كأنه موسيقي. هذا القيد الحديدي و العبء الثقيل في الطبيعة يعكس صداه داخلنا كنتيجة للمتعة الخالصة المطلقة، كما لو كان هذا القيد وتر ذهبي للقيثارة.

فعلاً تبدو رائعة تلك الطبيعة التي لها جانبين في آن واحد، قمة التناقض بينهما ، أحدهما عبودية و الأخر حرية. نفس الشكل، و الصوت و اللون و الذوق، و لكن هناك في كل جانب نوتة موسيقية تختلف عن الأخرى. واحدة منهم ما تتطلبه الحاجة في عالمنا الدنيوي، و الأخر هو السعادة نفسها. الطبيعة الدنيونيه طبيعة عمل و ليس فيها راحة، و لكن الطبيعة الداخلية فيها كل السكون و السلام. معاناة و كدح في جانب و سعادة و تمتع علي الجانب الأخر. تستطيع أن تري تلك العبودية في العالم المادي، و لكن في القلب تشعر بالجمال المطلق.

يقول الرائي، « تولد كل المخلوقات من تلك المتعة، و منها يستمد هؤلاء المخلوقات دعمهم، و في سبيلها يتقدموا، و إليها يصلوا ليس هو من ينكر القانون، و لا تتبع متعته المطلقة من تسمم الانغماس في الفكر المجرد. فهو يدرك تماماً القوانين الطبيعة الصارمة، و يقول أيضاً ، « أن النار تحترق خوفاً منه، و الشمس تشرق خوفاً منه، و أيضاً تعمل قوي الرياح خوفاً منه ، و كذلك السحب، و الموت». فهو القبضة الحديدية لذلك القانون، الذي يكون علي أتم الاستعداد بأن يُعاقِب علي أقل انتهاك. و بالرغم من ذلك، يغني الشاعر أغنيته المبهجه، « تُولد كل المخلوقات من تلك المتعة، و منها يستمد هؤلاء المخلوقات دعمهم، و في سبيلها يتقدموا، و إليها يصلوا».

هذا الكائن الخالد يُظهر نفسه في شكل تتبلور من خلاله سعادته و متعته. تلك هي طبيعة المتعة الكبيرة التي تدرك نفسها و هي في ذلك القالب (أي القانون). فالمتعة– التي ليست لها قالب– يجب أن تخلق لنفسها قالب و تسعي له. فمتعة المُغني تنعكس في أغنيته، و كذلك الشاعر بالنسبة لقصيدته. فالأغنية و القصيدة ، كلاهما هم نتيجة المتعة الوفيرة.

فيجب أن يكون هناك في طبيعة هذه المتعة، أي الحب ، تلك الثنائية التي تسبب إدراكها. فحينما يكون لدي المُغني الإلهام، فيصبح مكون من جزئيين. هذا المُغني لدية النفس الأخرى التي تسمع ، أي الجمهور. كذلك فالمحب يري نفسه الأخرى في محبوبة. تلك هي المتعة التي يخلقها الإلهام، ليجعلنا نصل للإدراك من خلال عقبات و تناقضات الوَحدة.

النشوي والبهجة الأبدية هي التي جعلت منه نفسين في آنٍ واحد. الروح تلك هي المحبوب (أي هي نفسه الأخرى).

كياننا عبارة عن نفسان منفصلان، و لكن إذا كان هذا الانفصال مطلق فليس لنا إلا أن نعيش في التعاسة المطلقة و الشر الكامل . لا يمكننا أن نصل أبداً إلي الحقيقة من خلال الزيف و لا إلي نقاء القلب عن طريق الخطيئة، لذلك فكل التناقضات تظل أبد الدهر في تناقضات، و لا يمكننا أبداً أن نخلق بينهما نقطة وسط تجمعهما. و بذلك لا يصبح لدينا أي لغة أو تفاهم أو مزج في القلوب أو تعاون في الحياة. و في الحقيقة الأمر علي العكس تماماً، فإننا نجد أن تباعد و انفصال الأشياء يسير في تناغم و مزج مثل السائل. ففردية كل شيء تتغير دائماً، فتتلاقي و تمتزج الأشياء مع بعضها البعض، حتى أن العلم نفسه يتحول إلي تكهنات و فلسفات، و يفقد موضوع البحث أبعادة، و يزداد تعريف الحياة صعوبة أكثر و أكثر.

نعم، تنفصل روحنا الفردية عن الروح العليا، و لكن ليس ذلك أبداً نفور، و إنما هو اكتمال للحب. و لهذا السبب فإن الزيف و المعاناة والشرور ليسوا بثوابت، فالروح البشرية يمكن أن تتحدي كل ذلك، و تتغلب عليه، فتجمعهم و تحولهم معاً إلي طاقة جديدة و إلي جمال.

فالمُغني يترجم أغنيته بالغناء، ومتعته تأخذ لها شكلاً، و المُستمِع يرجع و يؤول هذا الغناء إلي متعته الأصلية، و هنا يكتمل التواصل بين المُغني و المُستمِع. فالمتعة المطلقة تتخذ لها شكلا ً، فتقحم نفسها في عبودية القانون. يتحقق ما نريده حينما نعود بالأشكال إلي المتعة، و من القانون إلي الحب، أي عندما نحل عقدة العالم المحدود و نصل إلي العالم المطلق. و تكن الروح الإنسانية في رحلتها من القانون إلي الحب، و من الانضباط إلي الحرية، و من السلوك الأخلاقي إلي الروحي.

يدرس لنا بوذا انضباط النفس و الحياة الأخلاقية، و إنها التناغم الكامل للقانون. لكن عبودية القانون ليست هي النهاية في حد ذاتها، فمن خلال سيطرة القانون نتمكن من الوصول إلي ما بعد هذا القانون. و إنها العودة إلي براهما، و إلي الحب المطلق، الذي يظهر في الأشكال المحدودة للقانون.

يطلق بوذا علي هذه الحياة – براهما فيهارا– أي متعة العيش من خلال براهما. فمن يريد أن يصل إلي تلك المرحلة، وفقاً لتعاليم البوذا، « لا تخدع أحد، و لا تستمتع بكراهية أحد، و لا تؤذي أي شخص بغضبك». لأن الإله لدية حب غير محدود لكل الكائنات و للأم أيضاً التي لديها فيض من الحب تجاه

طفلها حينما تود أن تحميه بكل حياتها. ينشر براهما حبة، فلا يمنعه أي عوائق أو صعوبات، ذلك الحب يخلو من أي وحشية أو عداء. فيغمرك أثناء الوقوف و الجلوس والمشي و الرقاد حتى النوم، فيعمل بكل جهده في تحقيق الخير للبشرية».

افتقاد الحب هو درجة من درجات الجمود و الغِلظة، فالحب هو اكتمال الوعي. فعندما لا نحب لا ندرك، أو إننا لا ندرك بسبب إننا لا نحب. الحب هو المعني الحقيقي لكل شيء حولنا. إنه ليس فقط عاطفة و لكنه حقيقة، إنه المتعة التي هي أساس كل المخلوقات. إنه الضوء الأبيض للوعي النقي الذي ينبعث من براهما. لذلك، فلكي تكون واحد مع هذا الكائن –المليء بالمشاعر– الظاهر في السماء الخارجية، و أيضاً في الروح الداخلية، فعلينا الوصول لهذه الدرجة من الوعي، أي الحب. من الذي يستطيع أن يتنفس أو يتحرك إذ لم تكن السماء بها تلك المتعة و السعادة النابعة من الحب؟. من خلال الإدراك الأكثر عمقاً في الحب، و انتشاره في كل أنحاء العالم، فلنا حينئذ أن ننعم و نسعد بالمتعة النهائية.

يقدم الحب هدايا تلقائية لا حدود لها. و لكن تفقد هذه الهدايا قيمتها الكاملة إذا لم نصل من خلالها للحب، أي لم نصل لمن قدم لنا هذه الهدايا. و لتحقيق ذلك، فيجب أن يكون للحب مكان في قلوبنا. فمن ينقصه الحب تكن قيمة هذه الهدايا بالنسبة له بمقدار ما تحققه من منفعة شخصية. و لكن هذه المنفعة مؤقتة و جزئية. فلا يجب أن تشغل تلك المنفعة كياننا و بما تحققه لنا من مصالح. و عند إشباع الرغبة فتصبح المنفعة في ذلك الوقت – إذا مازالنا مُصرين عليها– عبء يثقل كاهلنا. لكن علي الجانب الأخر، فالشيء الرمزي يتحول إلي ثروة دائمة لنا عندما نشعر بالحب داخل قلوبنا. ليس الحب الذي نستخدمه للوصول إلي غرض شخصي معين. فهو من أجل كياننا الكلي وبذلك لا نشعر بأي تعب أو معاناة.

و السؤال هو، بأي شكل نتقبل هذا العالم، ما هي الهبة الكاملة التي نحصل عليها من المتعة؟ هل نستطيع فعلاً أن نشعر بالحب في قلوبنا حينما نضع بداخلة الأشياء التي لها قيمة دائمة؟ ، نعمل بكل جنون من أجل تسخير كل قوي العالم للحصول علي القوة أكثر و أكثر، نحصل علي الطعام و الكساء من هذا العالم، ونتسابق نحو الأغنياء، و يكون السعي ما هو إلا مسابقة شرسة. و لكن هل نحن خلقنا من أجل ذلك، أي أن نسعى دائماً للاستحواذ علي العالم كله و أن نجعل منه سوق للمتاجرة؟ . تفقد عقولنا قيمتها الحقيقية حينما فقط تركز في استغلال هذا العالم. فتصبح رخيصة و تلهث وراء الرغبات المُتدنية.

بالقرب من نهاية حياتنا، نحاول أن ندعم أنفسنا بهذه الأشياء و بالتالي نفقد الحقيقة، فقط مثل الطفل الطماع الذي يحاول تقطيع أوراق كتاب قيم ليبتلعهم بعد ذلك.

بالنسبة لأكلي لحوم البشر، كان الإنسان هو طعامهم. ففي تلك الجماعات البدائية، لا يمكن أبداً للحضارة أن تزدهر و تنمو، لأن الإنسان هناك يفقد قيمته العليا. و لكن هناك أنواع أخري من أكلي

لحوم البشر، و ربما ليسوا بهذا الشره ، و لكنهم ليسوا أقل شناعة ، أي هو من يظل في عالمة الضيق و لا يرغب في الذهاب أبعد منه. ففي البلاد الأكثر تحضر و رقي، نجد أن الإنسان أحياناً ليس أكثر من مجرد جسم، و لحم جسده هو المقياس و هو السلعة المعروضة للبيع و الشراء في السوق . و تكمن قيمته الوحيدة من كونه مفيد و نافع ، أي يتحول إلي أله، و يُباع للأغنياء ليحصل علي مال أكثر.

يأتي الشره و الجشع و حب الراحة مع تدني الإنسان و وصولة إلي أقل قيمة. فهذا ما هو إلا خداع رهيب للنفس. لذلك تعمينا هذه الرغبات عن الحقيقة، و هذا هو أعظم خطأ يمكن أن ترتكبه النفس في حق الروح. لأنها بذلك تخُمِد الإدراك داخلنا، و يكون مصيرنا هو الانتحار الروحي الذي يتحقق بالتدريج. هنا نتفتح الباب علي مصراعيه للفسق و البغاء و لطرق العقاب و للحبس المؤلم و للأشكال المنظمة التي تستغل الأجناس الأجنبية و إفسادهم عن طريق تجريدهم من السيطرة علي الذات و الدفاع عن النفس.

بالتأكيد يستفيد الإنسان من الإنسان ، لأن جسمه أله رائعة التكوين وأيضاً عقلة ذو فاعلية رائعة. و لكن لدي الإنسان شيء أخر غير جسده، لدية روحة التي لا يدركها الإ بالحب. عندما نُقيم الإنسان وفقاً لقيمة الخدمة التي من المتوقع أن نحصل عليها منه، فإننا بذلك لا نعرف ما هو الإنسان بشكل كامل. فمع هذه المعرفة المحدودة له ، نجور علية بكل بساطة و نستمتع بمشاعر تهنئة النفس بالانتصار- كنتيجة لهذه الوحشية القاسية- عندما نستطيع أن نتخلص منه بمبلغ أكبر بكثير مما دفعناه فيه. و لكن حينما ندرك الروح فإننا ندرك أنها جزء منا. هل ذات مرة شعرنا أن القسوة و الوحشية التي تجاهه هي قسوة و وحشية تجاه أنفسنا و أننا حينما نحاول أن ندني من شأن إنسان أخر فنحن بذلك نسرق جزء من إنسانيتنا. بذلك رغبتنا في استغلال الإنسان لتحقيق المصلحة الشخصية هو فقط ما نكسة بالمال أو الراحة في مقابل التضحية بالحقيقة .

في أحد الأيام ركبت علي قارب خاص بأحد الهمجيين. كان ليل جميل في الخريف. فسرعان ما غربت الشمس، و امتلاءت السماء بالسكون الكامل مع سلام و جمال يفوق الوصف. الاتساع الواسع للماء كان يخلو من أي أمواج، مع لمعان الظلال المتغيرة لغروب الشمس. هناك أميال و أميال من ركام الرمال التي ترقد في تعاسة مثل البرمائيات الضخمة المنقرضة، مع تلاؤلؤ الحراشيف بألوان زاهية. و بينما كان المركب يتحرك في هدوء بجانب ضفة النهر شديدة الانحدار، و كأنه يسير حائر داخل أعشاش مستعمرة من الطيور، إذ فجاءه قفزت سمكة كبيرة علي سطح الماء ثم اختفت، و كان يظهر في شكلها كل ألوان السماء ليلاً. فرسمت لبرهة من الزمن شاشة متعددة الألوان كان بها السكون الكامل لمتعة الحياة. و من أعماقها الغامضة تكونت رقصة جميلة امتزجت بسيمفونية الغروب الهادئة . شعرت بالترحاب الجميل من العالم الغريب، فكان لهذا المنظر صدي في قلبي مع وميض من السعادة. و فجاءه يصرخ الرجل الذي يجلس علي دفة القارب بنبرة تنم عن الحسرة « ما هذه، تلك السمكة الكبيرة!». قفزت إلي ذهنه صورة السمكة و هي علي طبق عشاؤه. فنظرته لها كانت بدافع رغبته، و بهذا الشكل

يفقد الإنسان الحقيقة الكاملة للوجود. و لكن الإنسان ليس كليةً حيوان. فهو يطمح للوصول إلي الرؤية الروحية، تلك هي رؤية الحقيقة الكاملة. فقد أعطت له أعظم أنواع السرور، لأنها تكشف له عن الانسجام العميق الذي يوجد بينة وبين البيئة حوله. رغباتنا هي التي تحد من نطاق الوعي الذاتي و تعيقه، فيكون المجال واسع لارتكاب الخطأ، تلك هي الفجوة العميقة التي تفصلنا عن الإله. فالخطيئة ليست مجرد عمل واحد، و لكنها موقف حياة يجعلنا نسلم بأن هدفنا محدود، و أننا أجزاء فردية لها كيان منفصل نهائي و لسنا من الأصل شيء واحد كامل .

و أكرر ثانية لا تتكون لنا رؤية واضحة ما لم نحبه (براهما). فلا تُقاس الحضارة من خلال ما لديها من قوة ، و لكن تُقاس من خلال تسخير تلك القوة- بما لديها من قوانين و مؤسسات- لصالح حب الإنسانية. فالسؤال الأول و الأخير الذي يتوجب علينا الإجابة علية هو، إلي أي مدي كنا نعتبر الإنسان روح أكثر من اعتباره أله؟ . يرجع سقوط و اضمحلال الحضارة القديمة إلي الأسباب التي نتج عنها قسوة القلب و التقليل من قيمة الإنسان. فعندما تحاول أي بلد أو أي مجموعة قوية أن تبدأ في النظر إلي الناس علي إنهم مجرد أداة لقوتهم، و عندما نذل الأجناس الأضعف بالوصول إلي مرحلة العبودية و نحاول إذلالهم يشتي الوسائل، فكأن الإنسان يدمر أساس عظمته و حبه للحرية و التعامل النظيف فيما بينهم.

لا تحصل أي حضارة علي القوة و الدعم بالاعتماد علي أكلي لحوم البشر،أيً كن نوعه. فالإنسان الحقيقي هو الذي يحصل علي الغذاء من خلال الحب والعدل.

و كما هو الحال مع الإنسان، فأيضاً مع الكون. و عندما ننظر إلي العالم عبر حجاب رغباتنا، فيبدو لنا صغير و ضيق، و لا نلاحظ أبداً الحقيقة الكاملة. و بالطبع يظهر لنا العالم كأنه يلبي كل طلباتنا، و لكن لا تنتهي علاقتنا بالعالم عند هذا الحد. و لكن في الأصل أن علاقتنا مع العالم علاقة أعمق و أصدق أكثر من علاقة الحاجة. فالروح تنجذب لهذه العلاقة، و حبنا للحياة هو فعلاً رغبتنا في استكمال علاقتنا مع هذا العالم العظيم. هذه العلاقة هي العلاقة الحب الواحدة الكلية. فنشعر بالبهجة لأننا علي علاقة بهذا العالم، فيربطنا بالعالم العديد من الخيوط التي لها اتساع من الأرض إلي السماء. يحاول الإنسان بكل حماقة أن يثبت تفوقه من خلال تخيل انفصاله عرقياً عن هذا العالم ، الذي يطلق عليه العالم المادي. أثناء التعصب الأعمى لهذا الإنسان فقد يحاول تجاهل هذا العالم . و لكن كلما زادت معرفته و إدراكه، كلما أصبح صعب علي الإنسان الانفصال، و كل الحدود الوهمية التي يقيمها حول نفسه تتلاشي الواحدة تلو الأخرى. في كل مرة نفقد بعض من شارات التميز المطلق ، أي بأن نعزل إنسانيتنا بعيداً عن بيئتها فنتعرض للإذلال. علينا فعلاً أن نقدم إنسانيتنا للانفصال و لكن إذا صاحب هذا الانفصال شعور بالفخر- أثناء طريق إدراكنا للذات- فنخلق لأنفسنا الأقسام و الانفصال، فأجلاً أم عاجلاً تدهسنا عجلة الحقيقة و نضع أنفسنا في التراب. فلا سبيل لهذا الاستعلاء الوحشي، الذي ليس له معني في وقاحته المُفردة. و علي مستوي الروح ، فذلك إفساد لنا أن نعيش في عالم بعيد كل البعد عن روحنا الحقيقية ، يثير هذا

الأسلوب لدينا الاشمئزاز و يحط من قدرنا لأننا نظل نعمل كالعبيد ليل نهار منذ الميلاد حتى الممات. و لكن الأمر علي العكس تماماً ، ذلك العالم ليس نقيض لنا، فنحن و العالم في وَحده دائمة.

فمن خلال تقدمنا في العِلم فإن كل العالم الذي نتحد معه يصبح أكثر وضوحاً في ذهننا. أي عندما يكون هذا الإدراك لكمال الوَحدة ليس فقط فكري، و عندها نصل للإدراك المستنير في كل شيء، إذ يصبح كياننا ذو سعادة مشعة و حب يغمرنا. و تجد روحنا نفسها الأكبر في العالم كله، و تمتلئ باليقين المطلق. و علي النقيض يموت كياننا مئات المرات داخل نفسه بسبب الانفصال الملعون المميت، لأنه غير دائم . و لكن إذا كان واحد ضمن الكل فلا يموت أبداً ، ففي هذه الوَحدة تكمن الحقيقة، أي المتعة.

عندما يشعر الإنسان أن النبض الإيقاعي لروح العالم كله هو هي نفس نبض روحة، عندئذ يكون حر. ثم يدخل بعد ذلك في علاقة مع هذا العالم يستمر فيها و ينعم بها ، هذا العَالمَ يبدو كالعروس الجميلة- التي ترتدي سترة المحدودية الملونة، و الإنسان هو الزوج الذي في أوج بهوة . و يعرف أنه مُشارك في هذا العُرس ،عُرس الحب الجميل و مهرجان الخلود. عندئذ يدرك ما يقصده الشاعر الرائي حينما يتغني و يقول، « من الحب يتوالد العالم، و بالحب يستمد دعمه، و إلية يسعي، و إلي الحب يصل».

في الحب، تندمج كل التناقضات التي في الوجود و تصبح كيان واحد. فقط بالحب لا يوجد أي تعارض بين الوَحدة و الثنائية. فالحب هو واحد و اثنين في نفس الوقت.

الحب هو الحركة و الراحة في كيان روحي واحد. يغير القلب مكانه دائماً حتي يجد الحب، و عنده يحصل علي راحته و يستقر. و لكن هذه الراحة نفسها هي نوع من النشاط القوي الذي فيه تكمن الطاقة المطلقة و الساكنة.

ففي الحب، ينسجم كلٍ من الخسارة و المكسب. ففي ميزانية الحب، يكون رصيد الدائن و رصيد المدين في عمود واحد، و تضاف المنح للمكسب. هذا المهرجان الرائع للخلق، هو احتفال عظيم للتضحية بالنفس من خلال الإله، فالمحب يضحي بنفسه في الحب. لأنه فقط في ظل هذا الانسجام، يمتزج كلٍ من الأخذ و العطاء في كيان واحد.

ففي قطبي الحب، تجد القطب الشخصي والقطب الأخر هو القطب الغير شخصي. في أحد الأقطاب تجد التأكيد الإيجابي – هنا أنا أكون- و الأخر تجد فيه النكران المساوي- أنا لا أكون. فبدون هذه الأنا، ماذا يعني الحب؟ و ثانية، كيف يكون الحب ممكن بالاكتفاء بهذه الذات الواحدة ؟

ليست العبودية والتحرر – تحت لواء الحب- أعداء. يسير الاثنين جنباً إلي جنب. فإذا كان الإله حر بشكل مطلق فبالتالي لا يوجد خلق. هذا الكيان المطلق يحمل بداخلة غموض المحدودية. وبذلك يصبح كلا الجانبين – المطلق و المحدود- واحد.

و بالمثل، فعندما نتحدث عن القيم المرتبطة بالحرية و العبودية، فما هو الإ لعب بالكلمات. فليس الحرية وحدها التي نرغب فيها، و لكن أيضاً نريد العبودية معها. ذلك هو الدور الأسمى للحب، أي أن نرحب بكل الحدود و نتجاوزها. و اللاشيء يكون أكثر استقلالا من الحب، و لكن أين يمكننا أن نجد الكثير من الاستقلال الحقيقي ؟ في الحب ، حيث تكون العبودية بنفس روعة الحرية.

و يعلن الدين صراحةً بأن الإله يقيد نفسه من خلال الإنسان، و فيه تتجلي أقصي عظمة للوجود البشري. في سحر الإيقاع الرائع للمحدود، يعلن الإله نفسه في كل خطوة، و هكذا فهو يقدم حبة من خلال الموسيقي التي تظهر في أفضل قصيدة تنشد الجمال. فالجمال ما هو الإ تودد الإله لقلوبنا، فليس له أي غرض أخر. فهو يقول لنا أنه في كل مكان و إظهار القوي ليست هي المعني النهائي للخلق، فأينما يكون هناك أي لون، أو نغمة موسيقية في أغنية، أو أي شكل أخر ينعكس من خلاله براهما، هنا نسمع نداء الحب.

دائماً ما يجبرنا الجوع علي الإذعان لأوامره، و لكن ليس الجوع هو الإشباع الأقصى للإنسان.

فالكثير من البشر لا ينصت – بمحض اختيارهم– إلي تلك الطلبات التي تكشف أن الروح البشرية ليست أسيرة للإلحاح الرغبات و للخوف من الألم. و حقيقةً لكي يحيا الإنسان حياته فيجب أن يقاوم مطلباتة اليومية، أدنها و أقصاها. و لكن، من ناحية أخري، هناك جمال في العالم لا يهين حريتنا، و لا يجعلنا نشعر بتفضله علينا. قد نتجاهل هذا الجمال ولا نلقي منه أدني عقاب. فهو يبحث عن الحب بداخلنا، و لا نستطيع أن نمتلك الحب بالإكراه. فليس الإكراه هو المطلب النهائي للإنسان بل السعادة و المتعة. تنتشر تلك السعادة و المتعة في كل مكان، في المساحات الخضراء علي وجه الكرة الأرضية، و في سكون السماء الزرقاء، و في بساطة فصل الربيع، و في التقشف الصارم للشتاء البارد، و جلود الحيوانات التي تغطي أجسامهم، و في التوازن التام للجسم البشري الرائع ، و في استخدام قوانا، وفي الحصول علي المعرفة، و في محاربة الشرور و في التطوق للمكاسب التي لا يشاركنا فيها أحد. فالمتعة توجد في كل مكان، فهذا الجمال يختلف عن كل متطلبات الحاجة المُلزمة. فهو يوجد ليعكس أن القانون يظهر فقط من خلال الحب، مثلهم مثل الجسد و الروح. فالمتعة هي إدراك حقيقة الوَحدة، وَحده روحنا مع العَالمَ و وَحدة روح العَالمَ مع المحب المقدس الأعظم.

6- الإدراك من خلال العمل

من توصل إلي هذه المتعة (متعة الإدراك في العمل) التي تنعكس من خلال القانون و الالتزام، هم فقط من يستطيعوا أن يتجاوزا هذا القانون. فهم ليسوا في منآي عن التزاماته، بل أن هذه الالتزامات تصبح بالنسبة لهم نوع من الحرية المُجسدة. فالروح الحرة تبتسم، موافقةً منها، علي هذه الالتزامات و القيود، و لا تتهرب منها أبداً، لأن هذه القيود بالنسبة لها ما هي الإ إظهار للطاقة المطلقة التي تظهر متعتها حينما تتجسد في الوجود.

إذ لم يكن هناك قيود، نصل بلا شك لجنون تلاشي القيود، أي جنون الحرية. فنشعر بالألم المبرح للانتهاك حينما ننفصل عن العالم المطلق. و بهذا النداء (نداء إغواء الروح) ننفصل عن قيد القانون، و نكن مثل الطفل الذي انفصل عن أمه، و يبكي، – أنا هالك!–» قيديني» ، « يإلهي، ضميني إليك بقيود قانونك، قيديني به و ليس بأي قيد أخر، دعيني بعناق قانونك أنعم بالسعادة المنبثقة منه، احميني بقوتك من تسيّب الخطيئة.

و في ظل الاعتقاد السائد بأن وجود القانون منافي للسعادة و المتعة، فإن ارتكاب الخطأ و الخروج عن القانون هو نفسه تسمم للسعادة، فهناك الكثير في بلدنا ممن عنده قناعة راسخة بأن القانون مناقض للحرية. لديهم تصور بأن النشاط الذي في العالم المادي ما هو إلا قيد علي حرية الروح. و علينا دائماً أن نأخذ في الاعتبار أن الروح تصل للحرية في العمل عندما تتجلي السعادة و المتعة من خلال القانون. و ذلك لأن المتعة لا يمكنها أبداً أن تتجلي من تلقاء نفسها فهي تحتاج إلي القانون لكي يظهرها، أي تحتاج إلي العمل المادي. فدائماً و أبداً تتحرر الروح بالنشاط، و بغير ذلك لا تستطيع أن تقوم بأي عمل جبري.

كلما عمل الإنسان فعلاً علي ما هو موجود بداخلة، كلما عمل علي تقريب المسافة، و كلما كان أقرب لما هو بعيد. و بذلك تُتاح له الفرصة لأن يتجلي أكثر و أكثر، و بوضوح يستطيع أن يري نفسه تحت مظاهر أجدد في غمرة من النشاطات المختلفة في المجتمع. تلك الرؤية هي رؤية من أجل الحرية.

لا تكمن الحرية في الظلام أو في الغموض. فليس قيد القانون مخيف مثل الظلام. و حينما تهرب البذرة من الخفاء فهذا هو نضالها لكي تنبت و البرعم لكي يتفتح. فهي تخلص نفسها من غلاف الغموض ، و كذلك الأفكار في عقولنا تتلهف وراء الفرص التي من خلالها تتبلور في شكل خارجي. و أيضاً الروح، فلكي تخرج نفسها من وسط الغيوم و تنطلق فيجب أن يكون لها سبيل ضمن مجالات العمل الفعّالة، و تسعي لابتكار طرق جديدة من النشاط حتى إن لم يكن هناك عائد مادي لهذه الأنشطة،

و لكن ما سبب حتمية وجود نشاط للروح ؟ السبب هو أن الروح تطمح للحرية و تطمح لأن تري و تدرك نفسها.

و عندما يقطع الإنسان الأشجار الموبوئه من الغابة و يصنع لنفسه حديقة، فالجمال الذي يتحرر و يخرج من وسط انحباس القبح هو جمال الروح: التي بدون انطلاقها إلي الخارج لا يستطيع الإنسان أن ينال الحرية. و عندما يرسخ في ذهن الإنسان القانون و النظام و يعمل بهم داخل المجتمع، فإن الخير –الذي ينبع من وسط العرقلة و الانحباس– هو خير روحة الداخلية. و هكذا علي الإنسان أن يطلق جمال و خير و قوي روحة عن طريق التزامه بالأنشطة و بالعمل. و كلما نجح الإنسان في ذلك، كلما كان يري شكله بصورة أفضل، و كلما كان علي دراية أكبر بنفسه.

و يقول الأوبانيشاد: « في غمرة النشاط وحده، يريد الإنسان أن يعيش مائة عام». تلك هي كلمات من تذوقوا فعلاً متعة و سعادة الروح. فهولاء من توصلوا إلي الإدراك الكامل للروح و لم يصبهم الحزن و خيبة الأمل بسبب معاناة الحياة و لا بسبب قيد العمل. ليس هؤلاء مثل الزهرة الهشة التي ينكسر و يذبل ساقها الضعيف قبل الإثمار ،أي قبل أن يتحقق المراد. استعان هؤلاء القدامى بكل ما لديهم من قوي للانخراط في العمل، « لا نغادر أبداً الإ بعد قطف الثمار». فلديهم الرغبة في إدراك نفسهم و التعبير عنها من خلال الدخول بكل قوه في معترك الحياة و العمل. لا يشكل لهم الألم و الأسف أي رعب قط، و لا تثقل الروح كاهلهم. بل هم يعبروا الحياة بإقدام و همة كالبطل المنتصر و رأسه عالية في السماء، فتتجلي و تلمع أرواحهم أكثر من خلال السعادة و التكبّد معاً.

فترتبط سعادتهم بالسعادة الناتجة من الطاقة المبذولة في العمل. فتمتزج متعة إشراق الشمس و متعة الهواء المنعش الجميل مع متعة أنفسهم فتتكون مملكة واحدة من الانسجام الجميل. « في غمرة النشاط وحده، يرغب الإنسان أن يعيش مائة عام».

ليس هناك أي ريب في حقيقة هذه السعادة، سعادة الحياة، تلك السعادة التي تأتي من خلال العمل.

و اعتقادنا بعدم جدوى ذلك، هو ضلال النفس، و لو لم ندع هذا الضلال جانباً فلم نصل أبداً لإدراك النفس. و لا نصل لأي شيء عندما تحاول أن تدرك العالم المطلق بعيداً عن العمل.

و من الخطأ حينما نظن أن نشاط الإنسان يأتي كرهاً له. فإذا كان هناك إجبار من ناحية، فهناك أيضاً متعة من ناحية أخري. فالمطلب هو أحد جانبي العمل و علي الجانب الأخر يأتي السمو الروحي. هذا هو السبب في أنه كلما زاد الإنسان تحضر و تقدم، كلما زادت التزامات الإنسان بسبب العمل الذي يخلقه لنفسه بمحض إرادته، أي أنه يرغب في المزيد من التزامات العمل. و علي الإنسان أن يدرك أن الطبيعة لديها ما يكفي لينشغل الإنسان بها. ليس ما يدفع الإنسان للموت هو الجوع و العطش، فهو لا يرضي بأن يقوم بما تُملية علية الطبيعة فيكون هو و عالم الطيور و الحيوانات علي حدٍ سواء.

فهو دائماً في حاجة لأن يتفوق و يتميز عن الجميع، حتى علي مستوي النشاط و العمل. فلا يوجد كائن عليه أن يعمل و يتحرك مثل الإنسان، فعلية أن يجبر نفسه علي خلق مجال واسع له من النشاط و العمل في المجتمع، و يتماشي مع البناء والهدم و مع قوانينهما، و مع ما في الحياة من ماديات مكدسة و تفكير متواصل، أي علية الاستمرار بالرغم من المعاناة. فعلية في هذا المجال أن يدخل في أقوي معارك له و ينعم بحياة متجددة ، و أن يموت تاركاً خلفه انجاز رائع يُحتذي به، و عليه أن يكون علي استعداد لتحمل المعاناة الجديدة بدون كلل. و علي الإنسان أن يكتشف دائماً حقيقة أنه لا يحقق الكمال داخل كهفه الحالي، فهو أعظم مما يبدو علية الآن، فلا يجد أبداً سبيل للراحة حينما يظل واقفاً شريد داخل كهفه، فهذا السجن يدمر الوظيفة الحقيقية و المغزى الحقيقي من وجودة في الكون.

هذا الدمار العظيم (داخل كهفه) لا يستطيع أن يتحمله، و عليه أن يكدح و يدخل في الصعاب لكي ينال المنزلة الرفيعة التي بها يتفوق علي وضعة الحالي، و لكي يصل للوضع الذي يرجوه. ففي هذا الكدح تكمن عظمة الإنسان، و في سبيل معرفته لذلك،علية أن لا يحصر نفسه في دائرة محدودة مغلقة من العمل، و لكنه عليه أن يستمر في توسيع تلك القيود. و أحياناً ينصرف عن هذا المسار فيفقد عملة مغزاه الحقيقي ، فيظل يكدح هنا و هناك فيخلق لنفسه تيارات معاكسة يدور فيها في دوامات مختلفة، هذا التيار المعاكس هو تيار التلهف وراء تحقيق المصلحة الذاتية و الزهو و القوة.

طالما، أن قوته الحالية لم يفقدها، فليس هناك خوف، فالعوائق و ضغط العمل الرهيب سيزول و يتبدد، فالدافع و الرغبة في الاستمرار يجعله يعدل عن أخطاؤه. ففقط حينما ترقد الروح في ثبُات، هل يستطيع الأعداء في ذلك الوقت التغلب علي تلك القوة، و هل تكون الصعوبات في ذلك الوقت معرقله لدرجة الأ تمر بها ؟ . و هكذا تأتي تعاليم حكمائنا، فلكي نعمل يجب أن نعيش و لكي نعيش يجب أن نعمل، فالحياة و النشاط شيئان متلازمان.

النقص صفة متأصلة في طبيعة الحياة ، فيجب علي الجسم الخروج من التقوقع للحياة الخارجية. تلك هي الحقيقة التي تكمن في المزج بين الداخل و الخارج. فلكي نعيش، فالجسم علية أن يوطد علاقته بالضوء و الهواء الخارجي ليس فقط من أجل الوصول للقوي الخارجية ، و لكنه أيضاً طريق للظهور و التجلي. فنري كيف يعمل الجسد من خلال نشاطاته الداخلية، القلب لا يتوقف عن دقاته و لو لثانية واحده، و كذلك المعدة و العقل يعملان دائماً دون توقف، و لكن ذلك غير كافي، فالجسم يبدو ظاهرياً في ذلك الوقت أنه دائم الحركة، فالحياة دائماً تقود الجسم نحو العمل و الحركة الدائمة . لذلك فلا يرضي الجسم بنظام الدوران الداخلي فقط ، و ذلك لأن الوصول للسعادة يأتي من خلال الجولات الخارجية.

نفس الشيء مع الروح. فهي لا يمكن أن تعيش حبيسة في ظل الخيالات و المشاعر الداخلية. فهي دائماً في حاجة للعالم و الأشياء الخارجية لتغذية الوعي الداخلي و أيضاً لإثبات نفسها من خلال العمل، أي بالأخذ و العطاء للعالم الخارجي، أي كلا الاثنين معاً.

و الحقيقة هي، إننا لا نستطيع أن نعيش إذا فصلنا الكائن الحي (أي إذا فصلنا الحقيقة) إلي جزئيين. فيجب التقيد به و أيضاً التحرر منه في نفس الوقت. و إذا أنكرنا في أي جانب أيً كان، الروح الكلية (براهما) فإننا نخدع أنفسنا و نتكبد الخسارة. « لا يتركني براهما، يابراهما لا تتركني. فإذا تصورنا أننا يمكننا أن ندرك براهما من خلال الاستبطان وحده و نترك باقي روحة في العالم و الأنشطة الخارجية، فإننا بذلك نستمتع به من خلال الحب الداخلي في قلوبنا، و لكننا لا نعبده من خلال الدعم و العون الخارجي. و كذلك علي الجانب الأخر، إذا كان اهتمام النفس ينصب علي إحدى رحلات السعي في العالم المادي، فإننا بذلك كالذي يترنح في طريقة نحو السقوط.

يري الغرب أن مطلب الروح الأساسي لها هو توسيع نطاقها في العالم الخارجي، فالمجال الخارجي لممارسة القوة هو مجال الروح، فيكون الولع الشديد الحصري بهذا العالم. و يبقي الاعتقاد بأن مجال الإدراك الداخلي هو مجال لتحقيق الذات أمر بالغ الصعوبة. فتبعد الروح تماماً عن هذا الجانب الذي فيه يكون هو اكتمال الإدراك لأن هذا العالم الخارجي في الأساس هو امتداد للعالم الداخلي، و لا يمكن الحصول لهذا الاكتمال بأي شكلٍ أخر بالرغم من تصور البعض أنهم وصلوا إلية في العالم الخارجي. فالعلم لدي الغرب يهتم دائماً بالتطور الدائم للعالم. و علم ما وراء الطبيعة قد بدء الآن في التطرق للحديث عن تطور الإله نفسه، حتى بعد ذلك سيرفض الغرب الاعتراف بأن الإله موجود، و يصبح في نظرهم متغير.

خفق الغرب عن إدراك أنه بالرغم من أن العالم المطلق دائماً أعظم من أي قيد أخر منسوب للروح، إلا أن روح براهما أيضا ًكاملة، حيث أنه يتطور من ناحية ، و علي الجانب الأخر هو الكمال نفسه، أي أن جوهرة يكمن في أحد الجوانب و علي الجانب الأخر ينعكس هذا الكمال من خلاله— فكلاهما معا ًفي أنٍ واحد. بالمثل عندما يغني المغني فتسير الأغنية و الأداء معاً. و لكن نأتي نحن و نتجاهل وعي المُغني و الغناء فقط هو الذي يستمر. فبلا شك لدينا الوعي المباشر بالغناء، و لكن لا يوجد هذا الوعي بالأغنية ككل، و السؤال هو هل نظل طوال الوقت لا ندرك أن الأغنية بالكامل توجد في روح المُغني؟

بسبب هذا الإصرار علي الفعل و التغير ، نري كيف يسبب ذلك تسمم في القوي. فيبدو أن إصرار هؤلاء – من يستخدم هذه القوي– هو سلب و نهب كل شيء عنوة و بالإكراه. فهؤلاء هم قطعاً في الفعل و لا يعد ذلك أبداً تغير. فلا يسمح هؤلاء للموت بأن يأخذ مكانه الطبيعي ضمن منظومة الأشياء—فهم لا يدركوا جمال الاكتمال.

ففي بلدنا (الهند)، يأتي الخطر من الجانب المعاكس. حيث نهتم بالعالم الداخلي للإنسان. نحن نتخلى عن هذا المجال الخارجي للقوة. فنحن ندرك براهما في التوازن بين العالمين فتتجلي لنا سمة الكمال فيه،

فكان قررنا أن لا نراه في العالم المادي و التقدم الذي فيه. لهذا السبب نجد دائماً لدي حكمائنا تسمم الروح و الانحطاط التالي له. وفقاً لإيمانهم، ليس هناك قيد لأي قانون.

خيالهم طليق بدون أدني قيد علية، فأسلوبهم هو الترفع عن تقديم أي تفسير للعقل. تتحجر القدرة العقلية لديهم- بالمحاولات الباطلة لإدراك براهما بعيداً عن خلقة- تتحجر، و تسعي قلوبهم إلي كبح فيضان العقل، فيغشي علية من خلال نشوي من المشاعر أشبة بالنشوي التي تنتاب السكير. فلا يوجد لديهم أي معيار يمكنهم من خلاله قياس مدي خسارة القوي أو الشخصية التي تمدنا بها الإنسانية من جراء تجاهل قيود القانون و متطلبات العمل في العالم الخارجي.

و لكن المقصود بالروحية الحقيقية، كما هو في معرفتنا المقدسة، هو التوازن الهادئ في القوة، في العلاقة بين الموجود و اللاموجود. فالحقيقة لها قوانينها، و لها متعتها. ففي احدي جوانبها تشدو « خوفاً منه تحترق النار»، و علي الجانب الأخر» من السعادة تتبع كل الأشياء المخلوقة». يستحيل الوصول للحرية بدون الخضوع للقانون، و وفقاً لبراهما فهو في أحد الجوانب مقيد بحقيقته، و علي الجانب الأخر فهو حر من خلال سعادته و متعته.

بالنسبة لأنفسنا، ننعم بمتعة الحرية، حينما نقدم أنفسنا كليةً لقيود الحقيقة. و لكن كيف يتم ذلك؟ فهو مثل تقيد الخيط الوتري في القيثارة. تتبع الموسيقي فقط حينما تتقيد القيثارة كلها بالأوتار و حينما لا يكون هناك أدني تهاون في قوة هذه الربط . تسمو هذا الخيط الوتري و يتجاوز نفسه الحالية من خلال موسيقاه ليجد في كل وتر الحرية الحقيقية. من ناحية يكون قيد القيثارة، و لكن علي الجانب الأخر تكمن متعة الموسيقي. و إذا كان الخيط الوتري وهمي ، فهو لا يكون أكثر من مجرد قيد. و لكن ليست الحرية بحل القيد ، بل علي العكس تتحقق الحرية كاملةً من خلال التقيد بشكل مُحكم أكثر حتى نصل لدرجة الصوت الحقيقية.

الألة عميقة الصوت و الخيط الوتري الثلاثي هي القيود. و طالما أننا لا نستطيع الحفاظ بشكل ثابت علي التناغم طبقاً لقانون الحقيقة، فلا نستطيع باسم الحرية أن نحل القيد من أجل عدم جدوى التراخي.

و لهذا السبب أقول أن الكفاح الحقيقي للبحث عن الحقيقة – حقيقة دراهما- لا يأتي بإهمال الفعل و لكن من الكفاح من أجل تحقيق انسجام الأوتار لتكن أقرب و أقرب من الانسجام الداخلي.

و يجب تكريس – أي عمل نقوم به من أجل براهما، أي الوصول له من خلال أنشطه الروح. و هذا التكريس هو أغنية الروح، ففيه تكمن حريتها. و من هنا تتدفق السعادة التي تكن عبر العمل من خلال الوحَدة مع براهما و عندما تتوقف الروح عن التلهف الشرس وراء الرغبات و حينما تنمو النفس أكثر و أكثر بشكل متزايد. فهناك يكون الكمال، وبالتالي تكون الحرية، و في هذا العالم تكمن مملكة الإله.

من ذا الذي يجلس بعيداً في الركن و يظل يسخر من التعبير عن الذات بالانغماس في العمل ؟ من هذا الذي يعتقد أن وحَده الإله مع الإنسان تتبع من متعة خياله المنعزل ، و يمكث بعيداً عن المعبد المقدس للإنسانية الذي يضم كل البشر في أوقات الرخاء و أوقات الشدة – في إشراق الشمس و في العاصفة– يكدحون من أجل البناء و التطوير علي مر العصور؟ من ذا الذي يعتقد أن العالم الخيالي المنعزل هو أعلي و أعظم كيان للدين؟

أنت يا من تسأل، كالسكير وفي يدك الخمر الذي يسمم النفس، فهل لم تشعر فعلاً بتقدم الروح البشرية في الطريق الرئيسي الذي يقطع مجالات الإنسانية الواسعة – و هل لم تسمع ضجيج تقدم و سير سيارة الإنجازات، التي تتجه للتغلب علي القيود من أجل التحرر؟ . فالجبال كالصدع المتباعد الذي ينهار أمام مسيرة الأعلام التي تتموج في السماء مبتهجة بالنصر، ومثلها مثل السحب أمام الشمس المشرقة، فتتلاشي كل معوقات الأشياء المادية المعضلة مع الاقتراب الرائع للسيارة. يتقهقر الألم و المرض و الفوضى في كل خطوة أمام بدايتها. فعوائق الجهل تتنحي جانباً، و تخترق السيارة ظلام الجهل، فتتكشف الرؤية بالتدريج و نصل للمكان الموعود حيث توجد الثروة و الصحة، الشعر و الفن، المعرفة و الإستقامه . هل بما لديك من رغبة خاملة تريد أن تقول أن سيارة الإنسانية– التي تهز الأرض مما أحرزته من نصر في التقدم حينما نستعرض التاريخ– تسير بدون سواق يدفع بها نحو للأمام؟

من الذي يرفض أن يستجيب لندائه من أجل تحقيق هذا التقدم الباهر؟

من بهذه الحماقة التي بها يهرب من هذا الازدحام المبهج و يهرع إلي التراخي و الكسل؟ فمن الذي يغوص في الوهم هكذا و يسير خلفه – و يقاوم هذا العالم العظيم للإنسانية و حضارتها، و يهرب أيضاً من هذا المجهود الأبدي للإنسان ، يهرب أيضاً من السير في السعادة و المعوقات معاً ليفوز بنصر إنجازه و قوته؟ فهل يستطيع الشخص الذي ينكر هذه الإنجازات الضخمة أن يؤمن بحقيقة الإله؟ من ذا الذي يري أن الوصول إلي الإله هو بالهروب من هذا العالم، فمتى و أين يمكن له أن يجد الإله؟، إلي أي مدي يمكنه التحليق— و يصل بعد ذلك إلي العدم و إلي اللا شيء؟ فهذا الجبان يطير و لا يستطيع أن يجد براهما في أي مكان. لدينا الشجاعة الكافية التي نقول بها أننا: يمكن أن نصل للإله من خلال هذا المكان و في هذه اللحظة. علينا أن نكون أقدر في إثبات أنفسنا من خلال إدراكه. فيجب علينا أن نقول أنه يمكننا بلا تردد أن ننظم و نزلل بكل جهوده المعوقات و الاضطرابات هذا الطريق طريق العمل و الأنشطة، فلنا أن نقول أن ،» في صميم العمل تأتي المتعة، و بهذه المتعة أصل أنا إلي ذروة متعتي وسعادتي».

من الذي يطلق عليه الأوبانشاد رئيس العارفين ببراهما؟. فهو « الشخص الذي يجد متعته و لّهوه لدي براهما، ذلك الكائن الواحد النشط». فالمتعة بدون اللّهو ليست متعة علي الإطلاق– و اللّهو بدون نشاط ليس لهو. فكيف للشخص الذي يجد متعته لدي براهما يعيش و يحيا بدون عمل؟ الأ يجب علية أن

يقوم بالعمل حتي يكون هناك شكل تتجسد من خلاله متعة براهما ؟ هذا هو السبب وراء أن من يعرف براهما عن حق و يجد متعته لدية، فيجب أن تكون كل أنشطته من خلال براهما، أي طعامه و شرابه و كسب رزقه و فعلة الخير.

فقط مثل الشاعر الذي يجد المتعة في قصيدته، و الفنان في فنه، و الشجاع في نتاج شجعته، و الحكيم في فطنته و بصيرته بالحقائق، و كافة الانعكاسات التي في مختلف الأنشطة. فكذلك العارف – الذي يجد متعته لدي براهما، ففي كل أعماله اليومية، البسيطة و الكبيرة سواء علي مستوي الحقيقة أو الجمال أو التخطيط أو فعل الخير– يرغب في انعكاس ذلك في العالم المطلق.

يريد براهما لنفسه أن تتجلي متعته بنفس الطريقة. « فمن خلال نشاطه المتعدد الجوانب، الذي يشع في كافه الاتجاهات، يحقق تلك الرغبة المتأصلة التي في مخلوقاته». هذه الرغبة المتأصلة هي براهما نفسه، و كذلك فهو بعده طرق، يستطيع أن يكشف نفسه. فتكريس نفسه يكون من خلال تكريس خلقة.

ففي هذه الروح، تكمن روحنا الحقيقية، فهو مثل حب الأبناء للأب. فعلينا إذن أن ننكر ذاتنا من خلال نشاط هادف متعدد الجوانب. و هذه الروح عند الفيدا هي « مانح القوي». فهو لا يرضي بأن يعطينا نفسه، و لكن يمدنا بالقوة التي بشكلٍ أخر نقدمها لأنفسنا. و لهذا السبب يتضرع إلية الحكيم (رائي الأوبانيشاد) ليحقق لنا رغباتنا، فقد يمنحنا براهما العقل الخيّر. يحقق لنا أقصي الأمنيات من خلال هذا العقل الخيّر. فلا يكفي أن يعمل وحدة من أجل تلبية رغابتنا، و لكنه يمدنا بالقوة و الرغبة في العمل معه في نشاطه و في تحقيق الخير أيضاً. فمعه وحده تتحقق وحدتنا. فالعقل الخيّر هو الذي يجعلنا نري أن رغبة نفس أخري هي رغبة متأصلة داخل كياننا، من خلال هذا العقل نري أن متعتنا تتكون من استهداف قوانا المتعددة الجوانب في عمل الإنسانية. و عندما نعمل بتوجيه هذا العقل الخيّر، فإن نشاطنا يصبح منظم، و لكنه لا يعمل بأليه ، فذلك هي نوعية العمل الذي لا يكون دافعة الرغبة الشخصية و لكن رضا الروح. فلا يصبح هذا النشاط مجرد تقليد أعمي للجموع و لا هو إتباع ما تملية أحدث الصيحات بدون أي تفكير.» فهو موجود في بداية و نهاية العالم». و بالمثل نري أن عملنا هو الينبوع و الإلهام، و في نهاية العمل نستطيع أن نراه، وهكذا ينتشر كل نشاطنا بالسلام و الخير و المتعة.

يقول الأوبانيشاد: « أن المعرفة و القوة و العمل من صميم طبيعته». و هذه الطبيعة فهي لا تجعل بداخلنا القصد و الرغبة في فصل المتعة بعيداً عن العمل. فالفصل بينهم يجعل العمل اليومي خالٍ من المتع، لأن بما نقاسيه لا نجد الراحة في العمل.

فالنهر يجد راحته في تدفق مياهه للأمام، و النار في ثوران اللهب، و رائحة الورد في النفاذ، و لكن في عملنا اليومي لا يوجد راحة، و حينما لا ندع أنفسنا تتقدم للأمام، فإننا لا نترك لها العنان لتنطلق بشكل كلي، فهذا النوع من العمل هو الذي يغلب علينا.

فيامن تقدم لنا نفسك! أنت المتعة ، أترك أرواحنا تنتطلق إليك كالنار و تنطلق إليك كالنهر، و تنفذ إلي كيانك مثل نفاذ عطر الزهر. امنحنا قوة الحب، لكي نحب كل حياتنا بكل ما فيها من فرح و حزن، من مكسب و خسارة، من علو و سقوط. فأعطنا القوة الكافية لنري و نسمع بشكل كامل العالم كله، فنعمل فيه بكل قواتنا. دعنا نحيا الحياة التي منحتنا أيها، و بكل شجاعة نأخذ ونعطي. هذا هو دعائنا و تضرعنا لك. دعنا لمرة واحده – بعيداً عن ضلال عقولنا– نري تفاهة و حقارة الخيال الحر الذي يتظاهر بأن متعتك هي جزء من العمل.

و أينما يحرث الفلاح تلك الأرض الصلبة، نجد متعتك تنبثق من خلال اللون الأخضر للزرع– أينما يزيل الإنسان تلك الغابة المتشابكة و يسوي الأرض الصخرية، و يجعل لنفسه مسكن، عندئذ تغلفه متعتك بالنظام و السلام.

يا عامل الكون! ندعوك بأن تدع هذا الإتجاة الرائع للطاقة الكونية يأتي مثل رياح الربيع الجنوبية ، دع ذلك يأتي و يتدفق و يغمر المجال الواسع لحياه الإنسان، دعه يُحضر رائحة الورود العديدة و همس الغابات، و أن يجمل جمود و سكون حياتنا الجافة. دع القوي الجميلة المتجددة تهتف من أجل اكتمال الإثمار في الزهرة.

7- إدراك الجمال

تُصنف الأشياء التي لا نجد بها أي متعة إما إلي عبء ثقيل علينا و علي عقولنا نريد التخلص منه بأي تكلفة، أو إلي أشياء مفيدة و لكنها مؤقتة حيث أنها تصبح شاقة حينما تزول فائدتها، أو إلي أشياء تكن مثل العابر الذي يهيم شريد و يتسكع في ضواحي الإدراك ثم يبتعد. و بذلك يصبح الشيء ملك لنا حينما يكون فقط ممتع.

الجزء الأعظم من هذا العالم يبدو لنا و كأنه لا شيء. و لكن لا يمكن أن يظل هكذا ، لأنه استخفاف بنفسنا. العالم كله مقدم لنا و من أجلنا، و كل القوي يكن لها معني نهائي عن طريق الإيمان أن من خلال دعم هذه القوي نتمكن من امتلاك إرثنا و حقنا الطبيعي.

و لكن ما هي وظيفة الإحساس بالجمال في توسيع نطاق الوعي؟ هل الجمال موجود ليقسم الحقيقة إلي أضواء و ظلال قوية، و نري الحقيقة أمامنا من خلال التمييز الصارم بين الجمال و القبح؟ و إذا الأمر هكذا ، عندئذ يجب علينا الاعتراف بأن الشعور بالجمال يخلق نزاع في عالمنا و يضع حائط سد في الطريق الأساسي الذي يقود من اللاشيء إلي كل شيء.

و لكن هذا غير صحيح. طالما أن الإدراك غير كامل، فحتماً يظل هناك انقسام و انفصال بين الأشياء المعروفة و المجهولة، بين المبهج و المحزن. لكن بالرغم من بعض أقوال الفلاسفة لا يقبل الإنسان أي تحكم أو قيد مطلق علي عالم حريته. يخترق الإنسان كل يوم بعلمه منطقة جديدة لم يكن لها وجود سابق في خريطته. و بالمثل فإن إحساسنا بالجمال يدفعنا دائماً نحو الفتوحات . و بما أن الحقيقة في كل مكان، إذن فكل شيء يطلب معرفتنا. و حيث أن الجمال في كل شيء، لنا عندئذ أن نصل للمتعة في كل شيء.

ففي بداية التاريخ، كان الإنسان يري كل شيء علي إنه ظاهرة في الحياة. ثم بدأ العلم بالفصل الصارم بين الحياة و الفناء. و لكن مع الاستمرار و التقدم كان الخط الفاصل يتلاشي. في بداية الاستيعاب و الفهم كانت هذه الفواصل الصارمة للتناقض – في بداية الاستيعاب – مساعده لنا بشكل كبير، و لكن كلما ازدادت الرؤية وضوحاً كلما تلاشت تلك الخطوط تدريجياً.

يقول الأوبانيشاد أن كل الأشياء خلقت بفضل المتعة المطلقة. و لكي ندرك هذا المبدأ فعلينا أن نبدأ بفكرة الانقسام بين الجمال و القبح. و هكذا فإن إدراك الجمال يجب أن يأتي إلينا من خلال عصف قوي يوقظ لدينا الوعي من هذا الخمول البدائي، فنحصل علي الشيء من خلال فهم التناقض.

و هكذا فإن المعرفة الأولي بالجمال تنعكس في رؤيتنا لزى الجمال المزركش بالألوان، فما يلفت انتباهنا فيه تلك الخطوط الملونة و الريش، و ليس أبداً القبح هو الذي يشد الأنظار. و لكن مع تطور هذه المعرفة، كان يتحول الاختلاف و التنافر مع الوقت إلي انسجام. ففي البداية كنا نفصل الجمال عن باقي الأشياء حولنا، و لكننا اكتشفنا في النهاية الانسجام الموجود بين كل الأشياء. و لهذا فلا تحتاج موسيقي الجمال إلي النغمة العالية لكي توقظ الوعي بداخلنا، يتبرأ الجمال من العنف، فيأتي إلي قلوبنا بحقيقة أنه استسلام و تواضع يملأ العالم.

في احدي مراحل تطورنا، كنا نحاول أن نضع نظام خاص للجمال، و نحصره داخل نطاق ضيق، و يصبح مجال للفخر بما يشمله هذا النطاق. فتتكون لدي معجبيه العاطفة و المبالغة ، مثلما كان الحال مع البراهمين عند تدهور الحضارة الهندية، عندما انخفض الإدراك الحسي للحقيقة و كانت الخرافات تنمو بدون أي تمحص.

في تاريخ الجماليات، هناك عصر التحرر الذي فيه يصبح إدراك جمال الأشياء عظيم و سهل، و ذلك عندما نري هذا الجمال في الانسجام المعتدل بين الأشياء أكثر من الأشياء التي في فرديتها مبهرة. لذا علينا المرور من خلال مراحل التفاعل عندما نحاول تمثيل الجمال، من خلال تجنب كل شيء يبدو ظاهرياً أنه مبهج و يسير وفق العُرف. أصبحنا نتمرد و نضخم عمومية الأشياء و نجعلها بشكل قاسي غريبة. و لكي نعيد الانسجام نقوم بخلق التناقضات التي هي سمة كل التفاعلات. و يمكننا فعلاً أن نري علامة هذا التفاعل الجمالي، الذي يبرهن للإنسان أن ضيق الأفق هو الذي يفرق بشكل صارم بين القبح و الجمال. عندما يتمكن الشخص و يملك القوة ليري بها الأشياء بعيداً عن المصلحة الشخصية و من المطالب المُلحة للرغبات المادية، فهو فقط الذي يستطيع أن يصل للرؤية الحقيقية للجمال التي توجد في كل مكان. و بذلك يستطيع أن يري حقيقة الأشياء التي تبدو لنا غير سارة ، فليس معني أنها غير سارة هي بالضرورة غير جميلة، و لكن جمالها يكمن في الحقيقة.

عندما نقول أن الجمال موجود في كل مكان فليس معني ذلك أن نلغي كلمة القبح من اللغة، مثل عدم استطاعتنا أن نقول لا يوجد في الوجود شيء وهمي. فالوهم بالتأكيد عامل سلبي– ليس في نظام الكون، و لكن في قوة الإدراك. و بنفس الطريقة القبح يكون في التعبير المنحرف عن الجمال في حياتنا و في الفن و الذي يأتي من الإدراك الناقص للحقيقة. و إلي مدي معين فقط قد تسير حياتنا ضد قانون الحقيقة الكلية ، و هنا يأتي القبح حينما نسير في الإتجاة المعاكس لقانون الانسجام الأبدي الذي يوجد في كل مكان.

و من خلال شعورنا بالحقيقة نستطيع أن ندرك القانون في الخلق، و عن طريق شعورنا بالجمال ندرك الانسجام في الكون. و بإندركنا القانون من خلال الطبيعة، فنحن بذلك نوسع من مدي تحكمنا في القوي المادية و نصبح بالقوة التي نريدها، و أيضا ً بإدراكه في طبيعتنا الأخلاقية نستطيع أن نحقق

السيطرة علي النفس و نصبح أحرار. و بنفس الأسلوب كلما أدركنا الانسجام في العالم المادي كلما شاركنا الخلق في السعادة، و بذلك ينعكس الجمال في الفن بكل طلاقة و حرية. و كلما أصبحنا أكثر وعياً بالانسجام في أرواحنا، فإن إدراكنا لسعادة الروح في العالم تصبح كونية و عالمية، و بذلك يتحرك إدراك الجمال في حياتنا- النابع من الانسجام- نحو الخير و نحو الحب ، أي نحو العالم المطلق.

هذا هو الشيء الدائم لوجودنا، لذا علينا أن نعرف أن « الجمال هو الحقيقة، و الحقيقة هي الجمال»، وعلينا إدراك كل العالم من خلال الحب، فمن خلال الحب يُولدَ العالم و يدعمه و يعيده إلي أحضانه. و علينا أن نفطن إلي التحرر الكامل للقلب الذي يمدنا بالقوة لنمكث في أقصي عمق للأشياء و نستمتع بالشعور بمتعة براهما .

الموسيقي هي أنقي شكل للفن- و بذلك فهي أكثر الطرق المباشرة في التعبير عن الجمال- و تندمج مع الشكل و الروح الواحدة و البسيطة و تمتزج بكل سهولة مع الأشياء الغريبة. و نحن دائماً ما نشعر بأن انعكاس العالم المطلق في أشكال العالم المحدود هو نفسه موسيقي ، تلك الموسيقي الهادئة الظاهرة.

تبدو السماء الليلية التي تدور فيها النجوم اللامعة مثل الطفل – الذي تنتبنا الدهشة عند بداية نطقه- فيتلعثم في نفس الكلمة مرات و مرات، و يستمع إليها بسعادة دائمة. كذلك في هذا الليل مع الظلام الكثيف علي الأراضي الخضراء و طقطقة مياه المطر التي تغطي سكون الأرض النائمة، تبدو رتابة طقطقة المطر كأنها ظلام الصوت نفسه.

تظهر كآبه الظلام و الخط الكثيف للأشجار، و الشجيرات الشائكة التي تتبعثر في الأرض القاحلة ، و رائحة الحشيش الرطبة و الأرض المبتلة، و هناك أيضاً تعلو قمة المعبد فوق كتلة الظلام المطلقة التي تتجمع حول أكواخ القرية و لكن كل شيء يتناغم و يتوحد من خلال عزف و موسيقي تنبع من قلب الليل، ثم يمتزج كل هذه الأشياء و تتوه وحدة صوت المطر الواحد المستمر الذي يملا السماء.

لذلك فالشعراء الحقيقيين، أي الحكماء الرائين، هم من يجسدوا العالم بشكل موسيّقي . فهم نادراً ما يستخدموا رموز الرسم للتعبير عن تدفق الأشكال، و الدمج بين الخطوط و الألوان اللامنتهاة التي توجد في كل لحظة علي لوحة السماء الزرقاء.

هم لديهم المبرر. من يرسم يجب أن تكون لديه لوحة و فرشاة و علبة ألوان. تبدو لمسة من فرشته أبعد ما تكون عن الفكرة الكاملة التي يرسمها. و عندما ينتهي العمل و يرحل الفنان، تظل اللوحة وحدها، و تنسحب يد الحب المبدعة بلمساتها الفنية.

لكن المُغني يملك كل شيء داخلة. فالعزف الموسيقي يأتي من صميم نفسه و حياته، و ليس ماده خارجية تتجمع من الخارج. هنا الفكرة و تجسيدها تكن مثل الأخ و الأخت التؤام. ففي الموسيقي، يكشف القلب نفسه في الحال، فلا يوجد شكل أو صياغة خارجية تعوقه.

و بالرغم من ذلك فإن الموسيقي تنتظر الكمال مثلها مثل أي فن أخر، لكن في كل خطوة تكشف عن جمال الكل. و قد تكن الكلمات ،كشكل مادي للتعبير، عوائق من خلال معناها الذي يأتي من العقل. و لكن الموسيقي لا تعتمد أبداً في ظهورها علي أي معني واضح ، فهي تعبر عما لا تعبر عنه الكلمات.

الموسيقي و الموسيقار دائماً ملتزمين. فعندما يغادر المُغني، فإن غناه يغادر معه، و لكن تظل الوحدة الأبدية بين الحياة و متعة المايسترو.

فالأغنية العالمية (للروح الكلية) لا تنفصل للحظة واحده عن المُغني. و لا نحدثها وفق أي ماده خارجية. تلك هي متعته نفسها التي لا تنتهي بظهورها في شكل يعكسها. إنه القلب العظيم للروح الكلية الذي يرسل رعشه الاهتزاز عبر السماء.

هناك دائماً كمال في كل وتر منفرد في هذه الموسيقي، فالموسيقي هنا هي انعكاس للكمال من خلال عدم الكمال. كل وتر من الأوتار هو نفسه نهائي و محدود، و لكنه مع باقي الأوتار يعكس المطلق. أي أن الأضداد تسير معاً في آنٍ واحد.

و ماذا يحدث أن لم نستطع أن نصل للمعني الحقيقي للانسجام الأعظم؟ ، أليس هذا الانسجام مثل اليد التي تتقابل مع الوتر فتخرج كل النغمات مرة واحدة بلمسة منه؟ تلك هي لغة الجمال، و هي المعانقة التي تأتي مباشرة من قلب العالم لقلوبنا.

أثناء الظلام الدامس و سكون الليلة الماضية، كنت أقف وحيداً و اسمع صوت المُغني بداخلي يتغني مع الموسيقي الداخلية. ثم ذهبت للنوم و غلقت عيناي علي هذه الفكرة الأخيرة التي كانت تجول في خاطري، و حتى بعد غياب الوعي فتزال رقصة الحياة مستمرة في المنطقة الهادئة (القلب) من جسدي النائم . فالقلب ينبض و الدم يتدفق في العروق و الملايين من الذرات الحية من جسدي تهتز في تناغم مع وتر القيثارة التي تهتز بلمسة من المايسترو.

8- إدراك المُطلق

يقول الأوبانيشاد: « أن الإنسان يصبح إنسان حقيقي لو فقط تمكن من إدراك الإله في حياته».

و لكن كيف يكون هذا الإدراك و هذا الوصول للإله؟ ، و من الواضح تماماً أن العالم المطلق ليس شيء مثل باقي الأشياء التي يمكن تقسيمها أو امتلاكها هو أيضاً ليس حليف لنا في سياستنا أو في الحرب أو في كسب الأموال أو في أي من الصراعات الإجتماعيه. لا يمكن أن نجعل الإله مثله مثل المنزل أو السيارة أو مثل حسابنا في البنك مثلما يريد الكثير من الناس أن يفعل.

علينا أن نفهم الطبيعة الحقيقية للرغبة التي تكون لدي الإنسان عندما تشتاق روحة إلي الإله. هل هي في الأساس رغبة نحو المزيد من الإضافات إلي ممتلكاتنا، بالرغم من قيمة هذه الممتلكات؟ الأمر ليس ذلك علي الإطلاق! فلا شك أن الرغبة في الاستحواذ و الإضافات المستمرة هي عملية شاقة لا تنتهي. أن الروح حينما تبحث عن الإله فهي ترغب في الوصول إلي الملاذ النهائي لها هروباً من التكديس و التكنيز المتواصل الذي لا حد له. الإله ليس شيء تكميلي للروح، و لكنه الكائن الدائم المنعكس في كل الأشياء الفانية، فهو ذروة المتعة الدائمة التي توحد بين كل المتع. و لذلك فحينما تأتي تعاليم الأوبانسشاد لتقول لنا أنه يجب علينا إدراك براهما ، فهم لا يتحدثون عن الرغبة في الاستحواذ علي شيء إضافي أو السعي لتصنيع شيء جديد .

« عليك معرفة كل هذه الأشياء الكونية التي غلفها الإله بروحة» عليك الاستمتاع بكل ما يأتي منه و ابتعد تماماً عن الطمع في ثروة ليست لك».

حينما تعلم أن ما يحدث يتم من خلاله و أن ما تملكه هو هدية منه، فإنك في ذلك الوقت تدرك المطلق من خلال المحدود، و تدرك المانح من خلال العطايا و المِنح. و من هنا تعرف أن كل حقائق الواقع لها معني واحد فقط متجسد من خلال حقيقة واحدة، و أي أن ممتلكاتك لها مدلول واحد لك، و ليس المعني في تلك الحقائق نفسها و لكن في العلاقة التي بينهم وبين المطلق.

و لذلك فلا يُعقل أبداً أن يكون براهما مثله مثل باقي الأشياء، فلا يمكن أن نفاضل بينه و بين شيء أخر، أو في مكان بدلاً من مكان أخر. فلا يجب علينا مثلاً أن نذهب إلي محل الخضروات في الصباح لكي نجده، و لكن مجرد أن نستيقظ صباحاً نجده حولنا. ولكن ما علينا هو إتاحة الفرصة لأنفسنا في أن نجد براهما في كل مكان.

لهذا السبب يحثنا بوذا علي أن نحرر أنفسنا من سجن النفس. إذ لم يكن هناك مكان بديل أفضل و كامل، فإن هذا التحرر بلا شك ليس له أي معني. لا ينصت الإنسان إلي من يطلب منه التنازل و الاستسلام التام في مقابل اللا شيء، هنا يكون حماسة فاتر و لا يعبأ بهذه التضحية التي بلا شك تُثقل كاهله.

لذلك فعبادة الإله اليومية ليست في الواقع هي عملية استحواذ تدريجي علية، و لكن المقصود بهذه العملية اليومية للتضحية هي السبيل لتزيل كل معوقات الوحدة و توسيع الإدراك، أي بالورع و الخدمة، في سبيل الخير و الحب.

يقول الأوبانيشاد: « عليك الغوص في براهما كليةً مثل السهم الذي يخترف هدفه». و لذلك فإن إدراكك بأن براهما يحيط كل كيانك ليس فقط هو مجرد تركيز من العقل علية. و لكنه يجب أن يكون هدف الحياة ككل. فعلينا إدراك المطلق من خلال أفكارنا و أفعلنا. دع إدراك هذه الحقيقة يصبح أكثر سهوله كل يوم. « لا أحد يستطيع أن يحيا و يتحرك إذا كانت طاقة المتعة الكلية لا تملاء السماء». دعنا نشعر بوجود دافع الطاقة المطلقة و نسعد بها.

قد يري البعض أن المطلق لا يتضمن الوصول لما نريده، في هذه الحالة يصبح بالنسبة لنا عدم. نعم، لو أن الوصول يعني فكرة الامتلاك، عندئذ نعترف أننا لا ننال المطلق. و لكن علينا أن نضع في ذهننا أن أعظم متعة للإنسان ليس فيما يملك و لكن فيما نصل إلية، وفي نفس الوقت لا يكون هذا وصول ، بمعني أنه هو الوصول الروحي للمتعة الحقيقية . فالجري وراء المتع المادية الجسدية لا تجعل مكان و لو علي الهامش للأشياء التي لنازل لا ندُركها. فهم (المتع المادية)، مثل القمر الصناعي الكامل للأرض، حوله غلاف جوي و لكن قليل.

عندما نتناول الطعام لنسد رغبة الجوع، فذلك هو الفعل الكامل للامتلاك. و طالما أن لم نصل لإشباع رغبة الجوع، فهنا نشعر بمتعة الطعام. حينما تصل هذه الرغبة في الطعام إلي الشبع ، بمعني أخر، عندما تصل رغبة الجوع إلي نهاية مرحلة الغفلة و عدم الإدراك، فإنها تصل إلي نهاية متعتها. و لكن في الأصل أن هذه المتعة التي نشعر بها عند تناول الطعام تلمس في كل لحظة العالم المطلق، فالمتع العقلية – بالإدراك– دائماً أوسع و أبعد. ففي شعورنا بالحب الأعمق نري المكسب و الخسارة يسيروا معاً بشكل متوازٍ. و في واحده من قصائد فيشنافا، يقول المحب إلي محبوبة: « أشعر كما لو أني أنظر لجمال وجهك منذ مولدي، و مازالت لم تشبع عيناي من النظر، كما لو كنت أريدك أن تخترق قلبي و تظلي به لملايين السنين و مع ذلك لن يشبع قلبي».

يبدو واضحاً أن المطلق الذي نرغب به يوجد فعلاً في ملذاتنا. فرغبة السعي وراء المال ليست فقط رغبة من أجل مبلغ معين من المال ، فتلك رغبة محدودة، فهي الرغبة الأكثر زوال بين المتع ، هذه الرغبة تلمس المطلق و لكن بشكل مؤقت. تراجيديا الحياة الإنسانية تتكون من محاولات فاشلة في

مدّ حدود الأشياء التي لا يمكن أن تكون مطلقة، أي بمحاولاتنا في الوصول إلي المطلق من خلال الاستمرار في الإضافات العبثية إلي العالم المحدود.

و يتضح مما سبق أن الرغبة الحقيقية للروح هي التي تتجاوز كل ما نملك. هل يمكن للروح التي تقيدها الأشياء أن تشعر و تحيا، فهي تبكي « أنا قلقة من الاستحواذ، أين هو الذي لم أجده»؟

نحن نري في كل مكان علي مر تاريخ البشر أن نكران الذات هي الحقيقة الأعمق للروح الإنسانية. عندما تقول الروح « أنا لا أريد الذات، فأنا أعلي منها»، فهي بذلك تتحدث من خلال المعني الأعمق للحقيقة التي بداخلها. عندما تنمو الطفلة الصغيرة بينما تظل دميتها كما هي لم تنمو، و تدرك أنها أفضل من تلك الدمية، فستلقي بها بعيداً. و بذلك نعرف أثناء الامتلاك ندرك أننا أفضل من الأشياء التي نملكها. فارتباطنا بالأشياء التي هي أقل قيمة من أنفسنا هي التعاسة الكاملة. و هذا ما شعرت به مارتري Maitreyi حينما أعطي لها زوجها كل ما يملك حينما غادر المنزل. فسألته « هل هذه الأشياء تساعدني في الوصول للحقيقة العليا؟» ، و بشكل أخر، « هل هم أعظم من روحي بالنسبة لي؟» قال لها « هذه الأشياء من شأنها تجعلك غنية و تجلب لك ممتلكات العالم» فقالت ما أفعل بهذه الأشياء؟». فيستطيع الإنسان أن يدرك ذلك فقط حينما يدرك بشكل حقيقي أن قيد الممتلكات التي لدية ليست أكثر من مجرد وهم، و يعلم أن روحة أعلي بكثير من هذه الأشياء، فيتحرر من هذا القيد. و بهذا الشكل يُدرك الإنسان روحة و يكتشفها و يعرف أيضاً أن تقدم الإنسان في طريق الحياة الأبدية يكون من خلال سلسلة من التنازلات و نكران الذات.

و لا نستطيع أن نستحوذ بشكل كامل علي العالم المطلق، فهو ليس مجرد شيء عقلي فحسب. فيجب أن يخضع للتجربة، التجربة شيء محمود لنا. الطائر، الذي يطير في السماء، يدرك مع كل حركة من أجنحته أن السماء غير محدودة. فالأجنحة لا يمكنها أن تحمل الطير خارج السماء. و هنا تكمن سعادة الطير. ففي الكهف المحدود للسماء يشعر الطير بأنه غير محدود و أكثر بكثير من مجرد الحاجة التي يطلبها. فبذلك يري المطلق من خلال التجربة و ليس مجرد اقتناع عقلي فحسب. كذلك الروح عليها أن تحلق في العالم المطلق، ففي هذا العالم تشعر بالسعادة المطلقة و الحرية النهائية في كل لحظة من خلال شعورها بعدم الوصول للنهاية مثلها مثل الطير.

سعادة الإنسان ليست في امتلاك شيء ما و لكن في تقديم نفسه إلي ما هو أعظم من نفسه، أي إلي أفكار أسمي من حياته الفردية الحالية، أفكار تتعلق بالبلد أو بالإنسانية أو بالإله. فتجعل من السهل علية أن يتحد مع كل شيء لدية. فيزال يشعر الإنسان بالتعاسة و الدنوّ
إ

لأي نيجد فكرة عظيمة يحيا بها فتجعله يندمج مع كل شيء حوله، تلك الفكرة التي تطلق سراحه و تفك عنه كل قيود ممتلكاته. كلٍ من بوذا و عيسي أنبياء عظام لهم أفكارهم العظيمة. فهم يضعوا أمامنا الفرص للاستسلام. فمن خلال قدسيتهم نري العطاء هو سعادتنا الحقيقية و الحرية الأسمى ، و هنا فقط نتوحد مع المطلق.

الإنسان غير كامل إلا أن يصل لهذا المعني. فالعالم الضيق الذي فيه يجعله ضئيل و صغير، فإذا تخيلنا أنه سيظل كذلك أبد الدهر فلنا أيضاً أن نتخيل الجحيم الذي يظل فيه. داخل الكيان البشري يوجد المطلق، حيث يوجد نجاته. ينشغل الإنسان في كل لحظة بسعيه للحصول علي ما يريد و ما سيفعله بهذا المكسب، الإ أنه يظل في كيانه دائم التعطش لشيء أفضل و أعظم مما يملكه.

الجانب المحدود لكياننا هام لحاجتنا و مطالبنا، فيه يبحث الإنسان عن الطعام لكي يعيش، و الملابس لكي يدفأ. ففي هذه المنطقة- تكن وظيفة الإنسان في الحصول علي الأشياء. فالإنسان العادي هو الدائم البحث عن توسيع نطاق ممتلكاته.

و لكن هذا المكسب يظل جزئي. فهو محدد و مقيد بحاجات الإنسان و بمطالبة. لذلك فاجتهادنا للحصول علي الأشياء مثله مثل الوعاء الذي يمكن نضع به الماء فقط حتي امتلاؤه. فكل علاقتنا بالطعام

تكون فقط بتناوله و سد الجوع، و علاقتنا بالمنزل هو فقط للإيواء. فهذا ما نطلق علية المنفعة عندما يكون الشيء فقط مُوجة فقط لقضاء مطلب محدد لنا. و لهذا حصولنا علية هو أمر جزئي محدود ليس أكثر. و بذلك الاشتياق و النهم للمكسب هو في جانب الذات المحدودة.

و لكن الجانب الأخر للنفس،الذي يكون تجاه المطلق، لا يسعي للثروة و لكن للحرية و المتعة. أي تتوقف المطالب و الحاجة، و ليس الهدف هنا هو أن نحصل و لكن أن نكون. أن نكون ماذا؟ أن نكون شيء واحد متحد مع براهما. ففي الجانب المطلق للنفس تكن الوحدة. و بناءاً علي ذلك يقول الأوبانيشاد: « عندما يدرك الإنسان الإله يصبح إنسان حقيقي» فلم يعد أبداً سعيه من أجل الاستحواذ و الامتلاك. فذلك مثل الكلمات في اللغة ، لا تتجمع كتله واحدة لكي يكون هناك معني لها،و لكنها يكن لها ثقل و تصبح حقيقية حينما تتحد مع الفكرة.

بالرغم من قبول الغرب ما أعلنه معلمهم في وحدته مع الأب، و حثه الدائم لطلابه و تابعية أن يصلوا للكمال مثل الإله، الإ أن الغرب لا يزال غير متصالح مع هذه الفكرة ، فكرة الوحدة مع المطلق. فيدين الغرب أي معني يشير إلي أن الإنسان مثل الإله ، و يعتبر ذلك نوع من أنواع عدم احترام المقدسات. بالتأكيد ليست هذه النظرة تعكس فكرة المسيح التي كان يدرسها، و ليست تلك هي روحانيات الديانة المسيحية، و لكنها ليس هذا هو الشائع لدي المسيحيين في الغرب.

و تظل الحكمة العليا في الشرق التي تقول بأن وظيفة الروح ليست هي الفوز بالإله من أجل الحصول علي منفعة مادية خاصة. فكل ما نطمح إلية هو أن نكون في وحده أكثر و أكثر مع الإله. في الطبيعة، منطقة الاختلاف، نحن ننمو بالامتلاك، و في العالم الروحي، منطقة الوحدة ، ننمو بإنكار الذات و بالاتحاد. و كما ذكرنا من قبل، فالحصول علي الشيء يكون جزئي إذا كان محدود فقط بالرغبة الجزئية، لكن يكون كامل إذا اتحد مع الكل ، فليس الحصول نابع من الضرورة و لكن من علاقتنا مع المطلق، هذا هو مبدأ الكمال في روحنا.

نعم، يجب علينا أن نكون براهما. لا يجب علينا أن نتضاءل و ننكمش لك نعترف بذلك، ليس لوجودنا أي معني إذا لم نستطع إدراك الكمال الأعلى الذي هناك. إذ كان لدينا هدف و لم نستطع أن نصل إلية،فهو ليس هدف علي الإطلاق.

و لكن هل يمكن أن نقول أنه لا يوجد اختلاف بين براهما و بين روحنا المنفردة؟ فطبعاً الاختلاف واضح. يمكن أن تسمي عدم الاختلاف وهم أو جهل أو أي شيء أخر و لكن الاختلاف نفسه موجود. قد تقدم بعض التفسيرات لإثبات صحة ذلك و لكنها تفسيرات بعيدة و غير سليمة. الخيال هو الخيال و براهما هو براهما، هو المثال المطلق للكمال. و لكننا لسنا فعلاً أنفسنا، فنحن نكون أنفسنا عندما نصبح دائماً براهما. هناك دائماً علاقة حب في العلاقة بين أن أكون و أن أصبح، و في عمق هذا اللغز يكمن مصدر الحقيقة و الجمال الذي يدعم المسيرة المستمرة للخلق.

في موسيقي المياه المتدفقة للنهر يصدر صوت اليقين الممتع ويقول، « يجب أن أكون بحر» ، ليس ذلك افتراض عبثي، و لكنه الخضوع الحقيقي، فبالنسبة له تلك هي الحقيقة.النهر ليس له بديل أخر غير أن يكون بحر. فعلي كلا الجانبين ، أي علي ضفاف النهر، يوجد العديد من الحقول و الغابات و القري و المدن، فيستطيع أن يقدم لهم المساعدة بعدة طرق، فينظفهم و يمدهم بالغذاء أو بالسماد، و يحمل انتاجهم من مكان إلي مكان أخر. و لكن ليس هناك علاقات جزئية معه، فبالرغم من أنه يتبطأ فيما بينهم إلا انه يظل منفصل و له كيانه الخاص، فلا يمكن أن يتحول ليصبح مدينة أو غابة. و لكنه يكون بحر. تجد هذه المياه ذات الحركة البطيئة الوحدة مع مياه البحر الساكنة. فهي تتحرك من خلال الأف الأشياء في اتجاهها للأمام، و حركتها تنتهي عندما تصل إلي البحر.

يمكن أن يصبح النهر بحر، لكن لا يمكن للنهر أن يمتلك البحر و يجعله جزء منه. و إذا افتراضنا مثلاً أنه يحيط مياه البحر شراع واسع و كان الظاهر هو أن البحر جزء منه، فنستطيع علي الفور أن ندرك أن البحر ليس كذلك، فالتيار الذي يسعي دائماً ليجد الراحة وسط مياه البحر لا يمكنه أبداً أن يضع حوله حدود.

و بنفس الشكل، روحنا تكن فقط براهما مثلما النهر يكون فقط بحر. و في حالة ارتطام الروح بأي شيء فهي تتعداه و تتركه و تستمر في طريقها، و لكنها لا تستطيع أن تغادر براهما و لا تتجاوزه. عندما تدرك روحنا الهدوء و الرقاد الدائم لدي براهما، فيصبح لكل حركتها هدف . أنه بحر الراحة المطلقة الذي يعطي معني للنشاطات الدائمة. فذلك هو كمال الكائن من خلال الحركة و التغير .

مثل سمة الجمال التي تنعكس في الشعر و الدراما و الفن. يجب أن يكون هناك فكرة كاملة تحاكي القصيدة. و كل جملة في القصيدة تلمس هذه الفكرة. عندما يدرك القارئ هذه الفكرة الكلية الشاملة، أثناء استمراره في القراءة فيشعر في ذلك الوقت بالسعادة و المتعة الكاملة. و هكذا فإن كل جزء في القصيدة يشع بأهميته من خلال ما يستمده من الضوء الكلي. و لكن إذا كانت القصيدة لا تعبر عن أي فكرة كلية و تعطي مجرد خيالات متقطعة، بالرغم من أنها قد تكون خيالات جميلة، إلا إنها تكن مُنهِكة و مُتعبة إلي أقصي حد. تطور و تقدم الروح مثل القصيدة الكاملة. لها فكرة مطلقة التي حينما يدركها الفرد يصبح لكل الحركات معني و متعة. إذ فصلنا هذه الحركات عن الفكرة الدائمة، و إذ لم نري الراحة المطلقة و نري فقط هذه الحركات الدائمة، عند ذلك، فإن الوجود يظهر لنا علي شكل وحش ،يندفع بتهور و همجية نحو الأمام ليصل إلي اللاشيء.

أثناء طفولتي كان هناك أحد المعلمين يجعلنا نتعلم عن ظهر قلب كل كتاب قواعد سنسكرت– الذي كان كله عبارة عن رموز– بدون شرح معانيهم. يوم وراء الأخر مع الكدح في الوصول لشيء ليس لدينا عنة أدني فكرة، فوصلنا لمرحلة من اليأس نعدّ فيها تلك الأنشطة التي ننجزها بشق الأنفس. بالمثل نحن لا نري هذه الراحة المطلقة للكمال الذي منها ينبع توازن و انسجام هذه الأنشطة . نفقد كل المتع

في هذا الوجود المُلهم لأننا لا نلمس الحقيقة. نحن نري فقط إيماءات الراقص، و نتخيل أن تلك الإيماءات و الحركات تسير بشكل عبثي قدري نحو اللا شيء في حين إننا لا نسمع الموسيقي الداخلية التي تحتم أن علي كل واحده من هذه الإيماءات أن تكون تلقائية و جميلة. تسير و تتطور هذه الحركات بشكل دائم نحو موسيقي الكمال، أي تكرس نفسها لهذه الموسيقي مع استمرارها في التطور والسريان.

تلك هي حقيقة روحنا، و هي متعتنا، تلك التي تتقدم دائماً نحو براهما، فكل حركات الروح يجب أن تتكيف لتتناسب مع الفكرة الدائمة، فتصل إلي الروح العليا للكمال.

و من أقوال الأوبانيشاد الجديرة بالذِكر :» لا أعتقد أنه هو الذي أعرفه جيداً، أو الذي أعرفه فقط أو حتى الذي لا أعرفه». بمعني أن براهما ليس هو الذي أعرفه حق المعرفة، و ليس هو الذي أعرفه معرفة عادية و أيضاً ليس هو الذي لا أعرفه علي الإطلاق. مجرد المعرفة لا نصل أبداً إلي الكيان المطلق. و لكن إذا كان هذا الكيان بعيد عنا، فهو بذلك لا يعني لنا أي شيء . الحقيقة هي إننا لا نعرفه، و نعرفه.

يتضح ذلك في كلمات أخري للأوبانيشاد: « نحتار في كلمات براهما، مثل حيرتنا العقلية ، و لكن من يعرفه من خلال متعته يتحرر من كل الشكوك».

المعرفة لدينا جزئية لأن العقل ما هو الإ وسيلة، فهو يمدنا بالمعلومات عن الأشياء التي تنقسم و التي يتم تحليلها، و لكن براهما كامل، و هذه المعرفة الجزئية لا يمكن أبداً أن تكون هي معرفة براهما الحقيقية.

نعرف براهما بالحب و المتعة. و هذه المتعة هي المعرفة الكاملة، أي المعرفة التي تأتي من خلال كياننا الكلي. عقلنا هو الذي يفصلنا عن الأشياء التي نعرفها، إنما بالاندماج الذي هو طريق الحب نعرف الهدف. و بالنسبة لهذه المعرفة الغير كاملة فهي بلا شك معرفة مؤقتة. إذن فالمعرفة الكلية هي معرفة أكثر بكثير من مجرد معرفتنا لأنفسنا.

و كما يقول الأوبانيشاد، إن العقل لا يمكن أن يعرف براهما، و الكلمات لا تصفه، فلنا فقط أن نعرفه من خلال روحنا. بمعني أخر، نستطيع فقط أن نرتبط به من خلال الوحدة—وحده كياننا الكلي. لذلك علينا أن نكون كيان واحد مع الأب، و علينا أن نكن كاملين مثله. و لكن كيف يمكن ذلك؟ ليس هناك درجات في الكمال المطلق. براهما واحد و ليس به مستويات أعلي أو أدني، لأنه روح كاملة واحدة شاملة لا تتجزأ.

و حقاً، إدراك الروح العليا المقدسة داخل روحنا الفردية الداخلية هي حالة من الكمال المطلق. فنحن لا نستطيع أن نعتبره بأنه غير موجود ، فهو وحده كاملة – و أيضاً لا نستطيع أبداً أن نعتمد علي

قوانا المحدودة التحليلية في إدراكه تدرجياً. إذا اعتبرنا علاقتنا مع الروح المقدسة كلها عبارة عن شيء نصنعه، فكيف نعتبرها إنها شيء حقيقي، و كيف تقدم لنا الدعم؟

نعم، علينا أن نعرف أنه بداخلنا يتوقف الزمن و المكان عن سيطرته علينا ، و لكن فقط تتحد كل روابط و عوامل التطور. في هذا المقر الدائم للروح، يكن الاكتشاف الكامل للروح المقدسة العليا.

و هكذا يقول الأوبانيشاد:» أن من يعرف براهما–الكيان الحقيقي الواعي المطلق الكامن في أعماق النفس و الذي هو السماء المقدسة (سماء الوعي الداخلية)– هو فقط من يستطيع أن يستمتع بكل أشكال الرغبة في الوحدة مع براهما العليم».

فهناك فعلاً تكامل بالوحدة. اختارت روح براهما المقدسة روحنا البشرية و كأنها كالعروس و الزواج هو الوحدة التي تصل فيها للكمال. يقول المقدس: « دع قلبك دائماً يقول كما يقول قلبي. لا يوجد في هذا الزواج مجال لتطوير هذا الجزء الخاص بمايسترو الاحتفالات الأعظم. إنه هو Eshah (هذا) الذي لا يمكن أن يُوصف بغير ذلك، فإنه هو الحاضر الحالي المجهول، هو دائماً هنا في كياننا الأعمق». الـــــ Eshah أو (هذا)، هو النهاية المقدسة لـــ (هذا) الأخر . فهو الكنز المقدس للجانب الأخر،هذا – هو المتعة المطلقة للجانب الأخر». لأن الزواج المُتوج بالحب المقدس هو دائما و أبداً زواج بارع. و بذلك تستمر دائماً لعبة الحب. فالذي يصل للأبدية هو من يسير عبر الوقت و المكان، و يمر بالمتع و الأحزان و يمر أيضاً بهذا العالم و ما يتعداه من أي علمان أخري.

عندما تفهم روحنا (العروس) ذلك جيداً، فإن قلبها يعيش في نعيم و في رخاء دائم. فتعرف أن أحد جوانبها مثل النهر، وصلت به لبحر الكمال، و علي الجانب الأخر هي دائمة السعي. ففي إحدي الجوانب تجد الراحة و الكمال الأبدي، و في الثاني تظل في تغير و حركة متواصلة. فعندما تعرف أن كلا الجانبين – بشكل منفصل – يتصل مع بعضهم البعض ، فهي تعرف أن العالم مثل أسرتها عن طريق المعرفة الفعلية بأن سيد العالم كله هو أيضاً وليّها وسيدها.

و من ثم فإن كل خدمتها تصبح خدمات للحب، و كل صعوبات ومشاكل الحياة ما هي إلا محاولات

تتكبدها بانتصار لكي تثبت قوه حبها، و تبتسم فائزة بالرهان علي حبها. و لكن إذا ظلت متشبثة بالظلام و بحجابه، فلا يمكنها أن تعرف حبها، و لأنها فقط تعرف هذا العالم المحدود المنفصل عن الروح الكلية المقدسة، فهي تخدم في هذا العالم كالخادمة و تبكي في حسرة ، في حين أن الحقيقة عليها أن تكن هي الملكة، التي بلا شك تسيطر. تلك الروح التي تعيش في ظلام « تمر من مجاعة إلي مجاعة، و من مشكلة إلي مشكلة، و من خوف إلي خوف».

لا يمكن أن أنسي بعض من كلمات أغنية سمعتها ذات مرة في وسط ضجيج الازدحام الذي تجمع في إحدي الليالي من أجل الاحتفال بمهرجانٍ ما، و تقول هذه الكلمات :» يا صاحب المركب، أعبر بي

إلي الشاطئ الأخر»!. في وسط ازدحام كل أعمالنا دائماً تخرج صرختنا، « أعبر بي». يغني السائق في الهند بينما يقود السيارة، « أعبر بي.» ، و كذلك بائع الحلوى يتعامل مع بضائع زبائنه و هو يغني « أعبر بي» . ما معني هذه الصرخة الداخلية؟ هي الصرخة التي تأتي حينما نشعر بأننا لم نصل لهدفنا، و نعرف أنه مع كل كفاحنا و كدحنا لا نصل إلي النهاية، و لم نحصل علي ما نصبو إلية. مثل الطفل الذي لا يرضي بالعابة، فصرخ من القلب،» ليس هذا، و لا هذا». و لكن ما هذا الجانب الأخر الذي نصرخ من أجله؟ و أين هو هذا الشاطئ الأخر؟

هل هذا هو شيء أخر غير ما نملكه؟ هل ذلك شيء أخر غير الذي نحن علية؟ هل نشعر بالراحة تجاه ما نقوم به، و هل لسنا مسئولين في الحياة؟ . بالطبع لا، في صميم نشاطاتنا نرغب بالنهاية. فنحن نبكي من أجل العبور، حتى أينما نسقط أو نقف نريد النهوض و العبور. لذلك فبينما ندعو و نصلي للعبور بالروح بعيداً نظل نعمل و نستمر في نشطانا. في الواقع، المتعة حولك، فهذا الشاطئ و الشاطئ الأخر هما شيء واحد بداخلك.

و عندما أقول أن أحد الشواطئ خاص بي، فإن الأخر يمكث بعيداً عني، و أفقد إحساس الكمال بداخلي، هنا يبكي قلبي ويزداد في صراخه تعطشاً للجانب الأخر. و بذلك عليك المزج بين الاثنين من خلال حبك.

هذا « أنا» الذي يكدح و يتكبد، نهار وعشية، من أجل منزل يعرف أنه منزلة. و احسرتاة إذ لم استطع أن أصبح صاحب المنزل، عندئذ لا نهاية لمعاناتي. استمر في المعاناة ، مع تكبد قلبي و صراخه،

« يا صاحب المركب، اعبر بي.» عندما يكون منزلي هو نفسه منزلك، فهذه هي لحظة العبور الحقيقية، حتى و إن كان هذا المنزل مُحاط بالجدران القديمة. إنه « أنا»، الذي يعمل من أجل المكسب الفاني. و أثناء سعي نفسي للدخول في أحضان هذا المكسب الذي هو ملك للجميع و الاستحواذ عليه، أؤذي الآخرين، و العكس صحيح،هنا فعلاً تبكي نفسي « أعبر بي.» و لكن بمجرد أن تصبح نفسي قادرة علي أن تقول، « كل عملي هو ملك لك»، عندئذ تأخذ كل الأشياء وضعها الطبيعي، و تعبر روحي إلي الشاطئ الأخر.

أين يمكنني أن أقابلك ، ما لم يكن في منزلي الذي هو منزلك؟ أين يمكنني أن أصل إليك، ما لم يكن في عملي الذي هو عملك ؟ إذا تركت منزلي فلن أبلغ منزلك، وإذا توقفت عن عملي فلا استطيع أن أصل إليك في عملك. فأنت تسكن داخلي و أنا أيضا فيك. فلا معني لأن تكون أنت بدوني أو أكون أنا بدونك. لذلك، ففي المنزل و العمل، تدعو نفسي و تتضرع « أعبر بي» فهي تسبح في البحر، و هناك تجد الشاطئ الأخر في انتظارها، نعم— إنه هو الحاضر الدائم القريب الذي لا نجده في أي مكان أخر.

الفـــــهـــــرس

1- إدراك الحياة
2- إدراك الروح
3- مشكلة الشر
4 - مشكلة النفس
5- الإدراك من خلال الحب
6- الإدراك من خلال العمل
7- إدراك الجمال
8- إدراك المُطلق